

# فنّ الجسور

## الإنسان ابن الجسور

ميشيل سير

ترجمة: عبدالسلام بنعبدالعالى



1.2.2022

## فن الجسور

الكتاب: فن الجسور - الإنسان ابن الجسور

تأليف: ميشيل سير

ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي

الطبعة الأولى: 2021

978-603-91589-9-8

رقم الإبداع: 1442/7139

هذا الكتاب ترجمة لـ:

Michel Serres

**L'art des ponts**

**Homo pontifex**

Copyright © Éditions Le Pommier, Paris, 2006

Arabic copyright © 2021 by Mana Platform

الآراء والأفكار الواردة في الكتاب تمثل وجهة نظر المؤلف

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ دار معني. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخريبه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من دار معني



www.mana.net

الناشر:

دار معني للنشر و التوزيع



Info@manaa.net

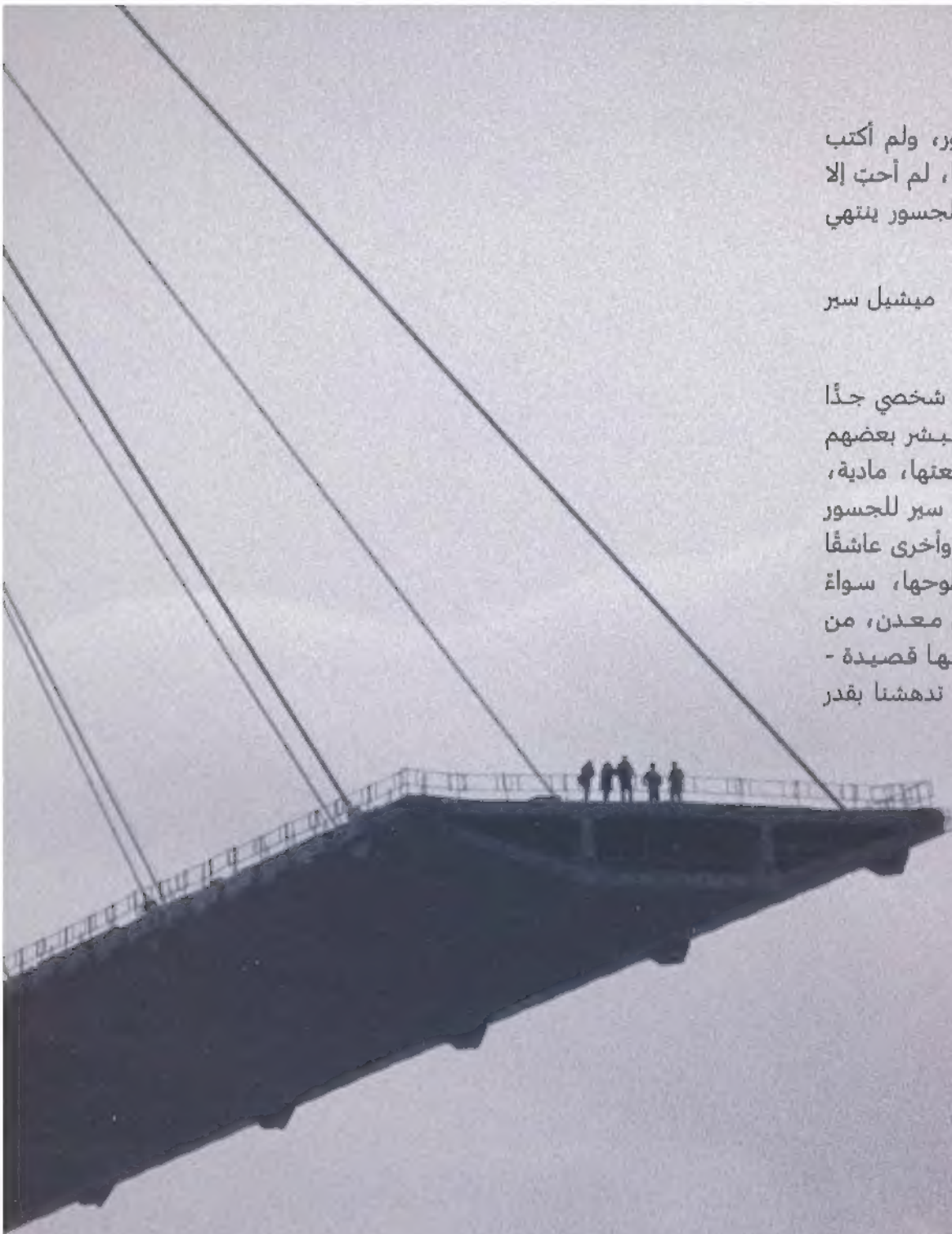


@ManaPlatform

”لم أحلم إلا بالجسور، ولم أكتب  
إلا عنها، لم أفكر إلا فيها، لم أحب إلا  
إياها. هذا الكتاب عن الجسور ينتهي  
بوصفه كتاب كل كتي.”

ميشيل سير

هذا الكتاب احتفاءً بشخصي جدًّا  
بالجسور التي تربط البشر بعضهم  
ببعض، مهما كانت طبيعتها، مادية،  
أم لامادية. يبوح ميشيل سير للجسور  
بولعه مرةً محبًّا ولهان، وأخرى عاشقًا  
مغرفًا، فيجرنا إلى سطوحها، سواءً  
أكانت من لحم أم من معدن، من  
حجر أم من كلمات. إنها قصيدة -  
دوامة، عميقة ورشيقة، ندهشنا بقدر  
ما تثرينا.



## الفهرست

- 1- الجسور الصلبة..... 6
- 2- الجسور الناعمة..... 64
- 3- الجسور الحية..... 130
- 4- الجسور المقدسة..... 184

## إهداء

إلى أسرتي الأولى، وإلى الجماعة التي وُلدت في أحضانها، ملاحِي النهر، ومستعملي آلات  
الرفع، إلى الجرافين وورثتهم، أهدي هذه الخلاصة، هذا الخليط من المياه والجمل  
والحجر، وكذلك إلى إخوتي في البؤس الذين يعيشون حاملين تحت الجسور.

# 1- الجسور الصلبة





# تمثل

زرت جسر الجار Le Gard، وأنا صغير السن، على الدراجة، مثلما كان جان جاك روسو وآخرون قد فعلوا على الأقدام. كان يظهر عند انعراج الطريق. مهملاً مهجوراً، لم يعد يصلح لشيء، لا يصلح قناة، ولا طريقاً، ولا قطعة في متحف. كانت قطع ضخمة تنفصل عنه في بعض الأحيان، فتنساقط كشعر رأسي كساه الشيب. كان الوحش العتيق يرقد في عرض النهر. وكانت الطيور والحمام والصقور تبني أعشاشها تحت أفواسه فتطير على جانبيه. وكنا نحن نذهب لترتمي في النهر؛ فنخلد إلى النوم على ضفته بجانب الدراجة، ونسمع اهتزاز الريح بين كوماته المتعددة. كنا ننظر إليه كأنه شخص غمرته السنون. قليل من الناس من كان يغامر بالمجيء إلى هذا المكان الخالي الوعر كثير الأحجار، الذي يغمره صمت يكشره صرير الحشرات. أحجاز الجسر المنفصل انتهى بها المطاف إلى أن تُحاكي صخور المشهد. كان الجسر قد انغمس في ديمومة الطبيعة متناسلاً التقنية والثقافة. لم يكن روسو محقاً؛ فالنسيان قد غمر أوسمة الشرف، والرومان وأحوالهم، وغزو منطقة الغال، وذكرى المعارك، كي لا يتبقى إلا هيكل عظمي يربط صفتين خشبتهما الجيولوجيا. كان الجسر يعمل عذاذا يقبش سن صغيري اللاتاريخية؛ كنت قد ودعت عشر مذابح، وكنا بحاجة إلى النسيان.

لكي تقيم سداً في الوادي أو لكي تجسره، ابن جداراً كثيفاً غيره. كم من الأطنان سيزن، وكم من الأنقاض سينخي، كم سيكلف من مواد أولية، ومن يد عاملة، ومن ساعات للعمل، ومن أموال؟ سيكون ذلك بثمن باهظ. لبناء أهرام مصر، أو جدار الصين، ينبغي أن يكون أمامك ما يكفي من الزمن، وسلطة قوية لحشد عدد كبير من الأفراد الخاضعين. من الأفضل توفير الجهود والأحجار والبشر، والزمن، ووزن الجسر وثمنه. لنقم بتخفيفه إذن. الحل الأمثل يقتضي أن نقيم فيه ثقباً، وهي كلها هنا على شكل أنصاف دوائر على خط واحد. يرجع استمرار تاريخ الجسور إلى عدد هذه الثقوب وإلى أبعادها.

عدت إلى الجسر شيخًا الصيف الماضي على متن سيارة. كان علي أن أختار على وجه السرعة موقفًا للسيارة من بين العديد من المواقف، وأن أسلك الطريق الإجباري الوحيد نحو بناء ضخم، جُهد التهينة، قد أُعِدَّ للمعلومات والوثائق وقاعات العرض السينمائي. حول الجسر، وُضعت علامات تأشير تمنع نهج بعض المسالك، فكنت مجبرًا على المرور من طريق بعينه. كان هناك عددٌ كبيرٌ من الزوار، وكانت صفوف المنتظرين كثيرة، كان هناك دليل صوتي يرشدك، كأثما في برج بابل، كانت الجماهير متعددة اللغات وهي تنادي بعضها تحدث جلبه من النداءات والصيحات والشكوى والتعجب والحماس والإعجاب، مما كان يغطي صرير الحشرات، ويجفل الطيور. كان المرشدون يبالغون في إلقاء الخطب أمام جماعات تبدي إعجابها بهم. كانت القناة قد أصبحت جميلة في قدمها، فكانت تنتزع نفسها من المشهد وتبتعد عنه كي تطل على الجمهور، منتصبه كأنها ديكور وشاشة على مسرح المشهد.

عندما كنت صغير السن، كنت أغوص في نومها المعدني الصلب، وراحتها العميقة. حيا أصبحت أقتسم معها حياتها الثانية القديمة. أما وقد صرت شيخًا، فإني صرت أحيا حياتها.



عما قريب، سيكون هناك كم أقل من الامتلاء، وأكثر ما يمكن من الفراغات، إلى حد أن تتمكنوا من رؤية الجهة الأخرى عبر الشفافية. الآن لا ترون إلا القناة، وغدا ستخمنون وجودها بالكاد. التاريخ الكامل لجميع هذه التقنيات يتوقف على تخفيف من هذا النوع. وهي تتلشى حتى تختفي. على سبيل المثال: لتأخذ تبادل القيم، لقد ابتدأ بالتبادل الثقيل لرؤوس الماشية، التي ترجمت في اللاتينية إلى رعوس capital ونقود pécuniaire، وفيما بعد تم التبادل عن طريق أكياس الذهب وصناديق الفضة، ثم ظهرت الشيكات، والمسودات فالأوراق النقدية، لكي تنتهي اليوم إلى علامات إلكترونية سريعة وطائرة. هذا الليل نحو الناعم يمتد إلى الثروات الثابتة والمتنقلة، والأدوات والآلات، والأجهزة التي كانت قديمًا صلبة وضخمة وثقيلة الوزن، فأصبحت الآن صغيرة الحجم، حيوية ومتحركة مثل البكتيريا. سعى الضخم نحو المصغر، والثقيل نحو الخفيف، والبيطيء نحو الحيوي، والصلب نحو الناعم. أيهما ينبغي أن نُفضّل: جسر الجار الذي يحمل شبكةً ضعيفةً من الماء، أم شبكتنا العنكبوتية اللامرئية الهشة، التي تجسر لكل منا ألف موسوعة؟



هنا، ومنذ سنين، كان يستهلك في  
سعادة كبيرة، أكثر وجبات الطعام  
طولاً وفحامة واكتظاظاً عبر التاريخ.  
عندما انتهت أشغال العمل الذي  
يتخطى بحر الباي، امتداداً لنهر  
التاج عبر البعيد عن لشبونة في  
البرتغال سنة 1998، احتفل العمال  
والهندسون والممولون والمفاوضون  
والحاسيون.. بنهاية هذا الإنجاز في  
حفل كبير امتدت موانده اثني عشر  
كيلومتراً على طول الطريق، حينئذ،  
وحينئذ فقط، يغدو العمل الفني،  
في نظري، جسراً حقيقياً، وذلك  
لأن الموائد تقيم بين الحاضرين  
العلائق نفسها التي تقيمها الأقواس  
والأعمدة بين الصفتين.





نعيش مدينة مسقط رأسي، آجان، بين حشرين!

الجسر-القناة، الذي اشتهر قديماً بفضل طريقه النادر للنقل، والجسر الحجري الذي ولدت على ضفافه. هناك ممر صيق ثالث ينظم الغطاء بينهما، يغير من طبيعة المرور ما دام لا يحمل إلا الراحلين، كما لو أنه تحت الأول وفوقه لا يمر إلا الماء. ليس لآجان إلا جسر واحد ثلاثة أشخاص.

في بعض الأحيان كان لخطواتنا صدئ مع الحبال ابي تشدُّ سطح جسر الممر. كانت أجسادنا تهتر للعلائق الرائعة التي تجمع بين الإيقاعات والأعداد، بين وجودنا والعالم، بين خطر الانهيار والطيران.

نوار حفيف بصحب من يمر فوق نهر الحارون وعلى الحافة من القناة، بين ماءين؛ الماء الطبيعي للنهر في الأسفل، والماء المصفى للتقنية في الأعلى. هذه النشوة توحى له بفكرة أنه في لحمه الأسود تجار هذه الطبيعة التلقائية التي نُخلق فوقها ثقافته البشريه الناعمة.

## جسوري

لطالما رغبت في بناء الجسور Ponts، ناسيًا لفوري من الأساقفة Pontifes.



## «منظورًا» إليه من الجسر

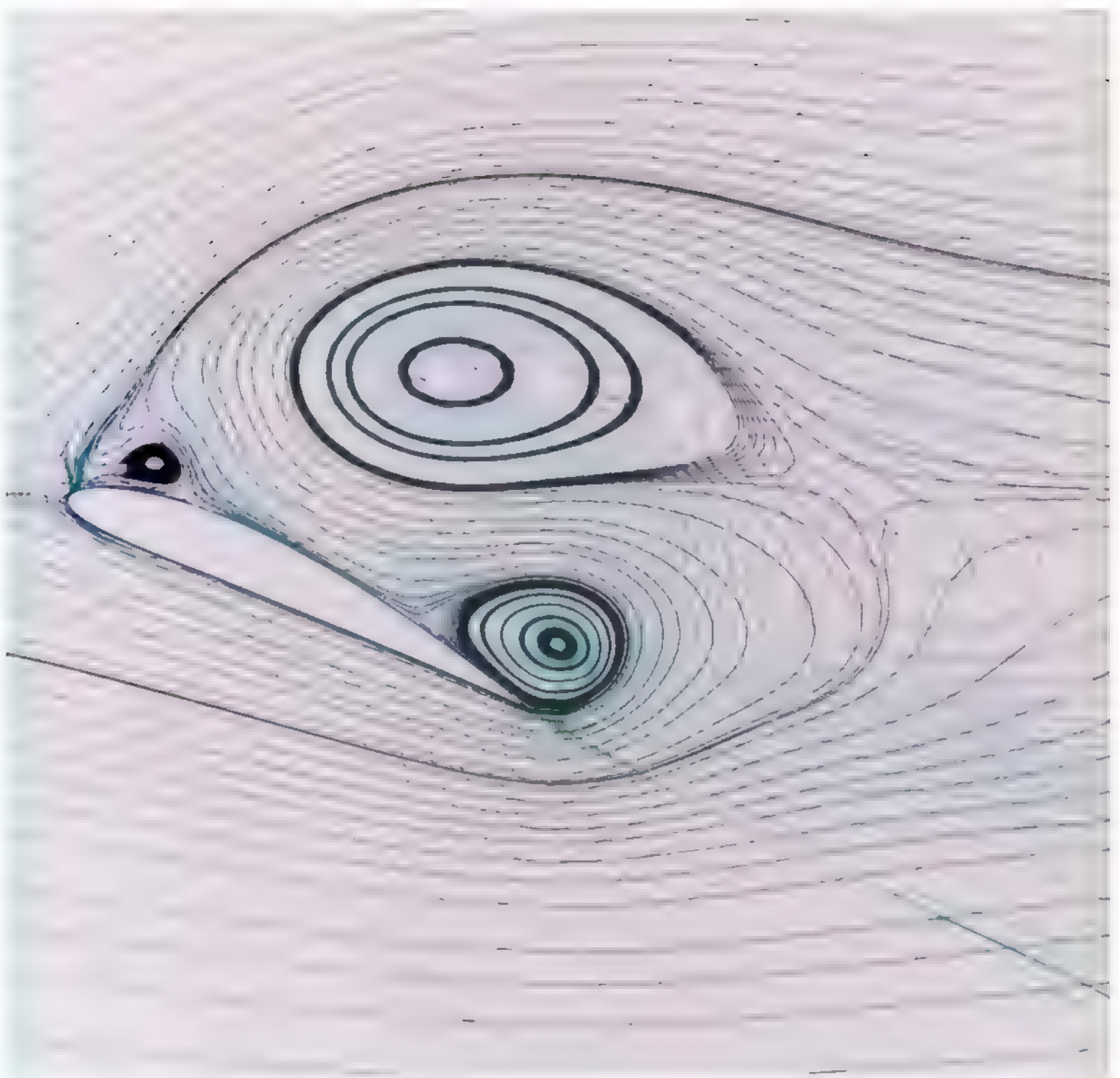
تحت الجسر الحجري يجري نهر الجارون، حكايات حكي  
القديم. تحت جسور العالم جميعها، تحري السيول والسواقي  
والأنهار، وتحت جسر ميرابو يجري نهر السين من أجل حكايات  
حب أخرى شهيرة للغاية. إنه جالس في جمى على اليابسة  
على سطح الجسر، ها هو يتحكم في عواطفه، بإمكانه أن ينظم  
الأشعار من أجل الأحفاد. هل يرى حقًا النهر أسفل؟ وهل بدور  
رأسه مع دوخة دواماته؟ هل يحش بجسده مجرورًا مع التيار  
المعكس؟ هل أبحر ذات مرة؟

منغمسًا في الوحل، بالكاد تخرج الجبهة من الماء، مسمزًا تحت الأكوام،  
يتقاذفه الهيجان؛ فيؤخذ لحظة نحو المنبع، وفجأة في اتجاه مصبه، بعنف،  
عارفًا أن حياته متوقفة على الطريقة التي يتدبر بها، كل لحظة، ظروف سباحته،  
فهل يسعف الحظ العاشق الولهان، بأن يدبر انفعالاته من أعلى، بتأليف أغاني عاطفية؟

منذ مئة عام، وأنا أنتظر أن يرتمي الشاعر أبولينير بسخاء من أعلى موقعه كي يعيش بعمق  
حكايات حبه الصاخبة. حينما كان ينشد، وعينه مرفوعتان إلى أعلى تجري: النجدة! إنها تجري في الممر الصاحب  
للزمن، من خلال الإيقاع المتقطع للمعاناة والنشوة، والخيانات والعودة والقسم والأكاذيب والغيرة والشكوك.  
لقد خدشت صخور النهر وأحجازه كل الواقع الشقي، فهل ستتكرر عظامه؟ امتلأت رثاه وحنجرته بالرمال،  
فهل سيختنق؟ تعكر صفاء عينيه بالمياه القذرة، فهل سيصيبه العمى؟ يصارع كتفاه وفخذه امتصاص  
الحفر التي تجذبه نحو الأعماق، فهل سيغرق...؟ آه! يا ليت ريان زورق يمر من هنا كي يشده إلى زورقه.

هل يحوز الملاح على هذه الرؤية من علي؟ كلا، لأنه ملزم هو أيضًا بتدبير اضطرابات المرور تحت الجسور.  
فهو لا يعبر قوس ميرابو مثلما يعبر قوس ماري، أو كما يعبر لوي-فيليب، كل تدفقي بين كومتين يظهر  
التواءاته وخداعاته الخاصة، ودحزه وتعنته ونذمه. لقد أبحرث في المياه العذبة بما يكفي لأتعجب  
من أن لعني تتحدث عن الجسور بصيغة المذكر، فهي أيضًا لم تُبحر أبدًا أبدًا كما يقول النشيد!  
يقتحم قيود السفينة قوس الجسر، ويحدث صوتًا قريبًا من الشخير، يجذب يسارًا ويمينا،  
كما لو أن سرعة الماء الحي، وكما لو أن صوت القبو يجذبه ويجرانه، يتقبلانه ويبعدانه  
ويرفضانه، لكنهما يرغبان فيه. يتغير السائل حسب مستوى ماء النهر، وحسب مد  
الفترة وجزرها، والطقس الذي يسود النهار، والأهواء الحادة للسيدة السين *la Seine*. يا للملذات العسيرة!

أيها السباحون، والبحارة، الذكور المساكين، الرجال السعداء، أنتم تترمون في  
أوديتكم المؤنثة، وأولئك الذين يتحدثون عن الحب يراقبونكم ببرودة من  
أعلى جسورهم. بما أنهم لم يبحروا قط، فهل سيعلمون؟



مثل أطفال-أسماك، كنا نعبّر سباحة، ضاحكين، الدوامات التي  
يحملها مجرى الجارون عند مصب السدود والجسور. كان المجرى  
بحرنا، وكنا نستسلم لذلك في هذه الاضطرابات، تعلمت  
أن هناك طريقتين للسباحة، طريقة الأنطال استنصرين  
التي يمارسونها في المسابح حيث المياه راكدة، والطريقة  
الطبيعية التي تتأقلم مع هذا الصخب ومع  
الأعمدة إنها مثل الاضطرابات التي يخلقها  
جناح طائرة منحنية خمسة وعشرين  
درجة على تيار هوائي.

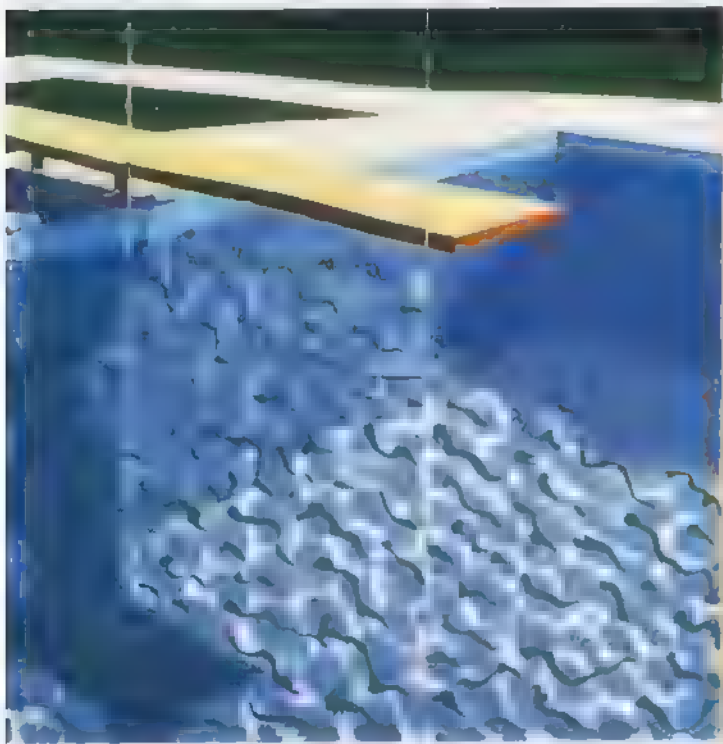


تحت جسور الصين - هنا في القناة  
الكبيرة- أو في أوروبا العجوز، بل وحتى  
على الأنهار، كما في البحار، تسحب  
قاطرات خلفها عشر أو خمس عشرة  
ناقلة محملة ومتشابكة، تنبع قطارا.  
لقد بذلنا كل هذا. لم نعد نجز ولا  
نسحب، لقد قررنا أن ندفع. تصطف  
القوارب على خط مستقيم أمام  
الدافع



ربما بسبب تغيرات المناخ، وأيضاً، بلا ريب، بسبب شدة ضخ المياه لريّ الدّرة، فإنّ الحفاف قد حوّل نهر الجارون إلى أدنى مستوى ساقية بخيلة. رأيته سابقاً، في أثناء الصيف، وكانت مياهه من العلوّ إلى حدّ أن الصديق لوبيز، مساعد الجراف، قد راهن، مقابل بعض قسينات نبيذ، بأن يرتمي من أعلى سطح الجسر. كان هناك جمهور غفير يصفق لإنحازه الذي عمري أعجائب، حتى ولو أن حماس المشاهدين، ساعتين فيما بعد، قد انتهى بأن رمى لوبيز نفسه مرة أخرى، ليس في الماء هذه المرة، وإنما في النّبيذ، وتحت طاولات المقهى المجاور.

## معبر



كل جسم بشري مغمور في سائل يرى نفسه أقرب إلى الصلابة منه إلى السيولة. العواص ديفيد هوكي David Hockney 1978

## الجسر-القناة

لم تكن الذواعي التزئبية وحدها كافية لتجعل الأحواض والنافورات والشلالات والينابيع الصخرية، تنال إعجاب الأثرياء الإنجليز، أو النبلاء الإيطاليين أو الفرنسيين، أو المارادجانات الهنود، أو الأباطرة الكوريين أو اليابانيين أو الصينيين... فهم لم يكونوا لينشروها في الحقول والحدائق حول محال إقامتهم بهدف وحيد هو جمالية راقية، وذلك لأن الأنقال والتيارات والتدفقات السائلة كانت توقّر وقتها واحدة من الطاقات النادرة المعروفة خارج سواعد البشر أو الجرّ الحيواني. هذه الحركات السائلة التي تبدو اليوم نوعًا من الترف الفرحوي، لم ير فيها أسلافنا إلا نفعها المادي. فلكي يحركوا شعارات المطاحن ذات الاستعمالات المتعددة، فإنهم كانوا يعملون على استحداث مستويات مختلفة لجريان السوائل؛ النهز إذا وجه جريان مياهه، فإنه كان يسمح بنقل المواد الثقيلة، ومنبع الماء إذا ما ضُبط، فإنه يغدو بمثابة قوى. كان مهندس مدني يولي اهتمامه

حتى القرن الثامن عشر، لجريان المياه وللسدود أكثر مما يوليها للتسخين، فكان يمارس مهنته على طريقة بيليدور Bélidor، مؤلف كتاب موجز درس في الهندسة العسكرية والمدنية والمائية سنة 1720، أو لنقل بالأحرى على طريقة ريكى Riquet، المهندس العجيب لقناة الوسط. لم تكن هناك نار بعد، اللهم إلا في المدافئ.

بما أن ثورة الطاقات الحارقة، من فحم وبترين وكهرباء ونووي حديثة العهد، فإنها قد أنستنا الطاقات القديمة، المتولدة عن المياه والرياح. إننا لم نغد نذكر العالم من غير حرارة، ذلك العالم الذي تعود عليه آباؤنا، العالم الصامت من غير دخان. إننا ناسون حقًا، لكن أيضًا

ضم، لشدة ما تُحدثه الحرارة من زفير واهتزاز وصفير. تشبه الضوضاء الباردة لسقوط المياه الصخبة العميق الأبيض الذي تُشكّن سحائه السمع، بين الصمت والصوت. أما عالمنا الساخن، فإنه يرنّ ويطن ويصمّ أسماعنا بإشارات لا معنى لها.

أخلد إلى الحلم: ما المادة وما  
الشكل الذي كان هذا الجسر-القناة  
الآخر سيتخذهما، هذا العمل  
الفي الغريب الذي كان سيحمل  
العناصر الأربعة؛ العنصرين  
الأولين لتقاليدي العتيقة؛ التراب  
الفلاحي والزمرد البحري، إضافة  
إلى عنصري حياتي العادية، الهواء  
الطاهر وناز الجحيم اللذين جزّاني  
إلى عشق الكتابة؟ لطالما تمنيت بناء  
معايير وجسور: جسور بين المعرفة  
والسر، بين الفلسفة والفن، بين  
العلوم الصلبة والعلوم الناعمة،  
بين العقل والدين، بين علم تاريخ  
الإنسان والنزعة الإنسانية... حب  
حارق، منبع أفكار باردة من شدة  
وهجها، تسيل دموغاً، وتجفّ  
زهذا، صلب كحجرة هشة، لكن  
من السيولة بحيث يقاوم كل  
شيء، هل أتبين الآن إلى ماذا  
يشبه بناء الجسور أو هذا المزج  
بين العناصر الأربعة التي تُشكّل  
العالم؟

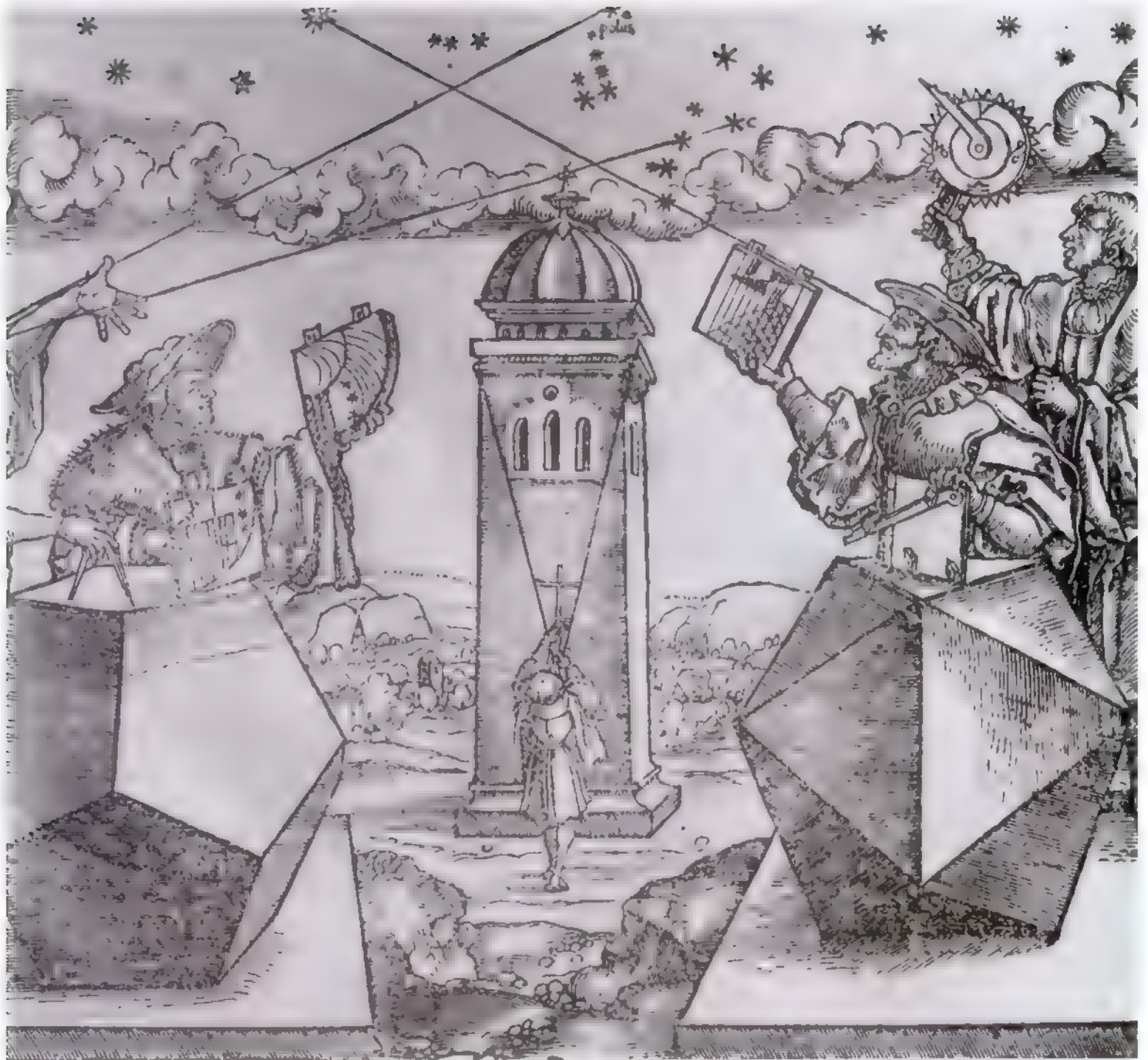
إنه يشبه جسدي، ونفسي،  
وحكايات عشقي، يشبهني أنا.

كان جدّي مسؤولاً عن تنقّل  
البواخر وحركاتها، وكان أبي ملاحاً،  
وهكذا كانا من أوائل من ولجوا  
الحدائق الساخنة؛ الأول ترك جرّ  
السفن بالحبال من أجل الزوارق  
ذات المحركات، فلم يغد يدبر المعول  
لفتح الأبواب أو إفراغ البركة، أما  
الآخر، فقد عرف في بداياته عجلة  
نقل الرمال، فاشتهر في مدينته  
بكونه قد اشترى أولى الشاحنات.  
ما زلت أذكر عجالاتها المغلفة، من  
دون إطار مطاطي، مثلما أذكر  
نقل حركاتها عبر السلاسل، كما  
الأمر بالنسبة للدراجة. كنا ما  
نزال ماثيين، فارتمينا في المواقف  
المعاصرة. منذ مدة وأنا أعيش على  
النار والإشارات، ولكن، بما أنني ذو  
أصل أكيّتي، فإنني ما زلت ماثياً.

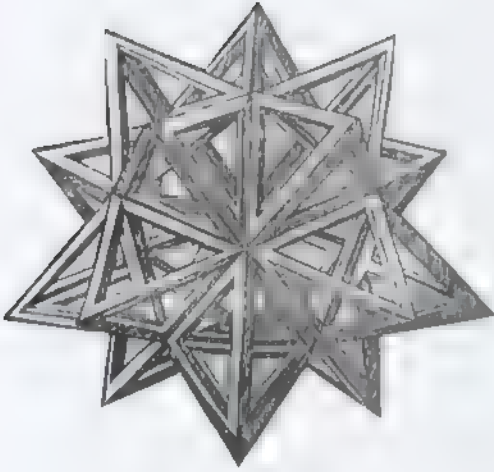
المهندس بالنسبة لنا، يعالج  
قوى نابغة من موقد، في حين أن  
الهندسة المائية هي التي كانت تسود  
أوروبا قبل أن تجيء الآلات النارية.  
عندما كان قارب مسطّح يعبر نهر  
الجارون نحو مصّبه، مشدوداً  
بالخيول في أسفل الجسر-القناة،  
حين كان زورق معلق في الأعلى  
على الجانب، وبشكل عمودي،  
مشدوداً بالحبال، يعبر من الضفة  
اليسرى إلى اليمين، كان الزمن  
يبدو أنه يعود إلى قرن الأنوار حينما  
لم يكن ألف موقد متنوع قد حرق  
العالم بعد. كان العمل والنفس  
يسيران حينها مع التيار.

كيف نصمم جسراً يربط مستويين  
مختلفين؟ بديل بنائه بالصلب،  
أقيموا بالأحجار شلالين أو  
سقوطين للمياه. وهكذا سيعمل  
المصدر والبركة على رفع القارب  
أو إنزاله عدة أمتار. يبينق هاويس  
مثل حصر عمودي سائل.  
حوالي سنة 1900





# البيلوبونيز والعناصر الأربعة



عندما كنت أزور، معجبًا، الجسر الذي كان يربط يونان بالبيلوبونيز، ولم يكن بناؤه قد اكتمل بعد، كنت أتعجب من كون المهندس قد نسي أن يثبت أعمدته وفق الأجسام الصلبة الخمسة التي تصورها أفلاطون، وبالفعل فقد بين هذا الأخير، باكراً جداً، أنه لا يوجد في عالم الهندسة، إلا خمسة مضلعات منتظمة، كي يحلّم فيما بعد بكون كل منها يبيّن عنصراً، في الواقع الفعلي للأشياء. تصوّروا مدى الانبهار: أن تصل إلى أثينا على الباخرة، فيستقبلك التراب، والهواء، والنار، والعالم والماء!

ما الأهداف الصعبة التي يتعدّر علينا الوصول إليها؟ لا يبلغ بيدنا ما يكمن وراء الماء، ولا ما يحلق في الأعالي، نرى النجوم من غير القدرة على لمسها. كيف نعبّر المسافة التي تفصلنا عن الرصيف الأمامي أو عن الكواكب؟ مهما ادعيت من خبرة وتمرّس بالواقع، فلا شيء يُمكنك من قياس هذه الأماكن البعيدة إلا المجرد. يزعم أوغست كويت أن اكتشاف الهندسة ترتب عن السعي إلى الوصول إلى هدف لا يمكن بلوغه. مدّ سحرة عصر النهضة، ملوحين بالإسطرلابات وبأجداد آلة قياس ارتفاع الأجرام، مدوا جسوراً هندسية نحو السماء. بفضلهم، هل انتقلت الجسور نحو التجريد، أم أن التجريد هو الذي جتثّر الواقع؟

الصورة جانبه، لمجهول وهي تعود إلى القرن السادس عشر. والصورة أعلاه ليوئاردو دا فينشي، 1509.

الأماكن هنا تعجّ بالمدن المنعمرة. لا تكفّ الزلازل والتسونامي عن ضرب الشواطئ. مواجهة لخطر الانهيار بسبب التكنولوجيا العالية، فإن جسر ريون-أنتيريون، يبدّي تحدياً مثيراً للإعجاب ضد عناصر أقل منه روعة. لكنه، فضلاً عن ذلك، استقر فوق مكعب وهرم وعلى ثلاثة مضلعات أخرى ذات أسماء أكثر تعقيداً. لقد كان في طمأنينة الأرض، وفي ثبات الماء والهواء، وحيوية البار وقدرتها على توليد الطاقات والإضاءة، وكان في اتساع العالم. إنه احتفال العيون، وومضات الذهن، وتأسيس رياضيات مجردة، إنه انتصار لليونان أم العلوم والفنون، فلماذا نُنسى الهندسة المدنية اليوم هذه الأصول للهندسة؟

بالنسبة لحجمها، فإن صديقاتنا العناكب تفرز

## لماذا لا نستفيد

ونعمل، مثلما نعمل منذ

## آلاف السنين، مع التكنولوجيا

الحيوية، مع حرير بعض الديدان؟ بكل

أسف، فإن جفع العديد من هذه المفصليات لحثها

أن تعمل من أجلنا، مثل النحل، قد باء مؤخرًا بالفشل،

لأنها، على غرار الإنسان، تنقّص على بعضها البعض، مهما كانت

ذريعة ذلك، بل إنها مستعدة لالتهام بعضها البعض.

انتقالاً من الحيوي القديم إلى نوع من التكنولوجيا المحهرة، فإن عالمًا، أكثر من ذلك

الذي قطع الجسور كي يضع أجزائها على باخرة، خطرث له فكرة أكثر جدّة، وهي أن ينقل لنوع

من البكتيريا الجين الذي يوجد في الحمض النووي للعنكبوت فيدفعها إلى نسج خيوطها. ميزة هذا أن هذه

البكتيريا لا تتقاتل داخل الإناء الذي توضع فيه، بل إنها تعمل على العكس من ذلك بحسب، فتنتج كيلومترات من

الخيوط. يكفي، والحالة هذه، وكما هي الحال مع دود القز، مَذ تلك الخيوط وجمعها في صفيرات للحصول على حيال لا

مثيل لقوتها ومثانتها، إلا أنها من الرقة بحيث لا تكاد تُرى.

سیدی

العبقري، فلن

نرى بدءًا من الآن أي وثائق

في العالم؛ لا الحبال التي تربط

السفن، ولا قصة الصيادين، ولا أوتار

قيثارة أو كمان، ولا حبال رافعات الموانئ، وإذا

شئنا، فلن نرى أيضًا الأحزمة التي تشد سروالي، كل هذا

سيتبخر ويطير، ستطير الحمامة، وستطير الأوتاد والسرابيل. لتحيا

الأشياء الحرة الطليقة! وشكرا لك سيدي العبقري، فإننا سنرى عما قريب

تخليق سطوح الجسور بين جهة وأخرى لأعمدتها، لأن لا أحد سيري حبال التعليق

ما دامت تتمتع بدقة خارقة، ستقام علامة حمراء نلمع أصواؤها منتهى، وستظهر مرتفعة

في الفضاء عبارة: احذروا الطائرات.

عندما تدع الامتلاءات المكان للفراغات، فإن مآثرنا الشماقة  
بالنظر الطبيعية. فهل نقروون لي يا أصحاب

האגודה

فيادوك دي فيور

Viaduc de Vian

1900 *subaeol*



خيوط شبكة العنكبوت بمنانة شبكات صيد، حبال مهيرة للإشارات تحذر أو نعد، كما أنها تشكّل حُسرا للمرور على غرار العنكبوت، نسج دائما بعض الخيوط كي نجتر علائقنا، الصلبة أو الناعمة، مع الآخرين ومع العالم



# نسج الخيوط

عرفت

في شبابي

شيخا إنجليزيا،

ضامزا وشيظا،

سألته عن سرّ عنفوانه،

فأجاب: إنه الحب، ما يشكُّ

فيه الجميع. كان قد رأى العالم

في وقتٍ كان قد بقي فيه ما يُكتشف:

اليابان المنغلقة، ولانردور القاحلة، وسان

فرانسييسكو تحت الزلازل، ورأس الهورن بنسيمه

العليل، وفالباريسو الفردوس، وهوبارت الممتلئ بالسجناء،

والتيكساس المأهولة بالطوباويين الفرنسيين، وباريس على موعد مع

أوروبا، شامبانياها ورقصة الكانكان الفرنسية. منذ سنّ المراهقة كان يعبر

البحر الجميل بواسطة سفينة شراعية كي يبيع الحبال في الموانئ.

إن من يصنع الحبال، وينسج الصفائر، ويفتل أمعاء الحيوان، وينسج الخيوط، ويوزع

الروابط، ويعقد الأوتار، وينسج ويخيّط ويحوّل المعادن إلى أسلاك... إنه لا يجهل شيئاً عن الروابط.

إنه يعدّلها ويدرسها ويحسّنها. المغزل يهئ الراعية للحب. على مهندس فيرايسينير Freyciner أن يتفوقوا في الحبرة الإبروتيكية؛ فحيوطهم تسند سطوح الجسور، مثلما يشدّ أي حبل جميع الروابط.

كشفت شركة آرسيلور Arcelor، الشهيرة في العالم بسباكتها وصاعتها للأفران الضخمة والصفائح المعدنية، كشفت طريقة من الخفة والعذوبة والعنكبوتية لنسج الحيوّط، إلى حدّ أنها تنسج أقمصّة من الفولاذ.

نعم وبصدق إن جسراً معلقاً يسدني فوق مضيق، ويبعث في إحساسا بالوحد. لقد اكتشفت سرّ الشيخ الإنجليزي: إنه فتل الخيوط.

الآباء يعلمون قتل الأب. أغاني الأطفال  
والأساطير والحروب تصرح بالحقيقة. قتل  
الأبناء.

لوحة إعلامية، حوالي 1900



منذ طفولتي إذن تربيّت على عادات  
الأسماك، ولكن في مناخات رحيمة،  
لم أكن بعد قد عبرت الوديان، الباردة  
حتى في شهر أغسطس، من أيسلندا،  
حيث كان عليّ أن أحمل على رأسي  
الحقيبة والملابس، في حين كان برّد  
قاتل يغمري من أخمص القدمين  
حتى الكتفين، ويصيب بقية الأعضاء.  
تارة نخرج من ذلك بكسونا الاحمرار،  
وأخرى تلوننا الزرقة، وكنا نخشى أن  
يبقى في الوسط. وسرعان ما كنا  
نصيح، من شدة الدموع الباردة،  
اللازمة للرحمة لأناشيد الطفولة. كنت  
قد قضيت منذ وقت طويل ربيع  
عمري.

المعبرا بالفعل، أن تعبر النهر صيفا،  
بين أكوام الرمل والحجر، حتى ولو  
أدى الأمر بك إلى التعثر حين تنزلق  
القدم، أمرٌ كان يبدو لي تمرّثا، إن  
لم يكن مريخا، فعلى الأقل من دون  
توغّك، خصوصا برفقة أخي. اللهم  
إلا عبد تدريب عسكري، وفي هذه  
الناحية ذاتها وهذه السنوات عيناها،  
فرض ضابط بليد جئيع على خمسة  
من رجاله مثقلين بالمتاع والأسلحة  
العبور ذاته، فغرقوا في عزّ ربيع  
عمرهم.

## أيها المعبر!

رباني والدي على نقل المراكب،  
وربّتي جدتي على الأغاني الفرنسية  
القديمة، وقد شعرت دائما، حتى،  
وإن لم تكن توجد، بعلاقة بين معابر  
نهري والغناء الفرّح لهذه اللّازمات  
الموسيقية: يا للمغامرة الجميلة، أيها

على نهري الدائرة القطبية،  
نهر يوكون ألسكا ونهر الحب في  
ماندشوري، وعلى طول الممرات  
المؤقتة اليابسة من النهر، بأخذ أقصر  
طريق عبر كثير من المجاري المتلاقية،  
فينتابنا القلق في أن نتيه في هذه  
البعرلات المليئة ثلجاً، ومياهاً حارقة  
من شدة برودتها، وربما لامتناهية.

نهر الحب، الذي لا يندھش أحد  
من كونه، غالباً، ما يبذل مجراه،  
يعرف مجرى مشروغاً، أعني مجرى  
أساسيًا، الجغرافيون يقولون مجرى  
قليل الأهمية، كما يعرف مئة مجرى  
آخر يسلكها حسب هواه، وهي  
مبعثرة في السهل، مجراه الشاسع  
الأقوى أهمية. من يا ترى من لا ينتابه  
الإحساس بالضيق في صحراء نهر  
الحب؟

مدفوغاً في الممر بفعل السجع،  
ولكن أيضًا بفعل معاني الكلمات،  
مجرورًا بما تسمح به هذه الشطآن  
المتعددة إلى اتخاذ أي اتجاه، حسب  
درجة البرودة، ونقل الأوحال،  
وحسب زاوية الشمس، وحسب  
الموسم، والعشب الطري، لا أعرف  
أي شيطان أغراني، فأحببت أن أعتبر  
بصوت عالي عن الدهشة التي كانت  
قد انتابتني عند سماعي لأصدقائي  
الثليين يطالبون بما ندعوه بلغتنا،  
رابطة الزواج. في حين أنهم يزعمون  
التمتع بخزيات تركت للأنهار التي  
يمكن عبورها التي أتحدث عنها، كيف  
لهم أن يبحثوا عن الروابط، القانونية  
والاجتماعية، لفراش قاصر؟

ألا تشبه أنهار مدننا الهادئة، بما  
هي عالقة بين صفتين، وبما هي  
تكون، غالباً، قد ضمتها أرضفة  
حجرية، ألا تشبه عشاقاً أنهكهم  
الزمن؟ إنها لا تجرؤ على التمرّد ضد  
سدودها وسفنها إلا في أثناء فيضانات  
الشتاء والربيع، وحينها يصيبها  
الشعر، فتجرف أحياناً جسور  
الحديد أو الحجر التي تمرّ من تحتها  
أيام شديدة الحزن. مقارنة بذلك،  
فإنني معجب بأولئك الذين يقطنون  
المرتفعات، والذين يتسلّقون في شتّى  
الاتجاهات التي يمكن أن نتخيّلها.

لنتغنّ بنهر الحب، ذلك النهر  
الذي هو من المرح Gai بحيث نعبره  
عبر ممرات جافة Gué.





عندما أمر بحسر معلق،  
أسمع اهتزاز حركة الحركات  
الهوائية، وعندما أمر في  
محارة، حسب خطواني  
مثل نوتات صول، لا...  
وأنا أقفز فوق الماء تعرف  
الموسيقى طيراني من صفة  
لأخرى.

بنحطى الوجود الخو، حر،  
ويجتر السدود، يمثلي  
ويطلق، ولا ينفك يصل  
من شاطئ إلى الشاطئ  
النواجه. إلى أن تحين  
الصبيحة حيث يكتشف أنه  
في وسط الأفق المفتوح، لا  
سد له، ولا شاطئ موعوداً  
أمامه، فيسبح وحيداً،  
داخل البحر



## جسر لا نفع فيه، مثل فنّ جميل.

لا أقول أين، ولا ألوم أحداً ولن أقول كيف. بما أن الأمر كان يتعلق بواحد قليل العمق يمكن التحكم فيه في ذلك الموسم، فقد قرر هرقل المسؤول عن الأشغال الكبرى أن يعزّج مجراه. قام بحفر مجرى حديد، يصل قاعه بسرعة إلى الشواطئ، عبر منحدر أنيق بعيد عن الجرى المعتاد. نتيجة لذلك، انتهت الأشغال إلى بناء قوس جميل على الرمال، من غير حفر للمراسي ولا حاجة إلى العوص تحت المياه، ومن غير حواجز ولا صعوبات. عندما اكتمل الجسر، أقيم الاحتفال، ثم أعيد حفر قناة لإرغام البهر على العودة إلى مجراه الذي ركن إليه منذ قرون. وبما أنه عيد، فقد رفض. ما من أحد رآه مرّة أخرى بين شواطئه القديمة.

هكذا، صار بإمكاننا اليوم، وسط السهل الجاف، أن نرور قوشاً رائغا يُطل على البابسة، مثل عمل فني، بينما النهر ينظر، متغطرساً، باحتقار إلى الحيوانات البشرية، فيسبب بعيداً هادئاً، من غير جسر، نحو مصير آخر.

فن الجسور أو جسر الفنون؟

في حرم جامعة ستانفورد Stanford، حظيتُ لسنوات باستضافة أخوية من طرف مارثا Martna وروني جيرار René G rard. لن يفاجئ هذا الأمر أي شخص إذا علم أنهما يقطنان شارع فرينشمان Frenchmant، الحامل اسم الشخص الذي اشترى منه الملياردير المرعة. على مسافة قصيرة من هناك، كانت ساحة لعب تُدعى "المثلث الفرنسي"، من سيفاجأ بهذا؟ كانت تُسقى عبر قناة صغيرة تنحدر من هضبة كان جميع الطلبة يدعونها الديش Dish، لأن الحاملة العملاقة لمنظار فلكي كانت تطلّ عليها من علي. علاوة على ذلك، كانت الساحة تتزين بجسر من الطوب الأحمر متوسط الأبعاد. بضع خطوات تكفي للوصول إليه. والحال أن قوسه يعلو على الماء نحو مئة متر. لقد انفصل الجسر عن النهر الذي سلّمه سطحه.

# مولد نهر جليدي

يمرّ متسلّق الجبال ببعض جسور الثلوج الناعمة  
على صدع أو ثغرة متسعة. من الأفضل له أن يتوغّل  
قبل شروق الشمس، وإلاّ داب الثلج، فينهار المسرب  
الضيق لهذا الممر. من لم يحشّ بالدوار الخفيف الذي  
يسببه قوسه الهش؟ إنه ضيّق في الوسط، وهو  
العنينة التي تكون فيها الحياة عرضة للخطر في أية  
لحظة، فينغص الجسد الذي يحاكيه ضيقًا. فجأة،  
عليّ أن أتخذ القرار؛ يتوقّف وجودي على هذا الحرف.  
هل أعبر؟ قدزنا يتحدّد بهذه الخطوات، هذه الأبواب،  
وهذه الجسور. أيقول القرار نعم أم يقول لا؟ أنا مقبول أم  
مرفوض، ناجح أم راسب، مرخّب بي أم مطرود، مصطفى أم  
ملعون، محبوب أم مكروه، مُخلّق أم هرع... وفي نهاية المطاف  
أحي أنا أم ميت؟ تختلق الحجرة، مثلما يضيق الصدع.

تكون الجسور حينئذ أشبه بالأنفاق. لقد ولدت أزرق اللون، موشكًا  
على الاختناق، وحبلّ الشرة ملتف حول عنقي، لم أر الوجود إلاّ  
وأنا على وشك الاحتضار. لا أستطيع أن أتذكر ذلك، إلا أن حياتي  
كلها ما فتئت تكرر بلا انقطاع عبور جسدي المميّث عبر القناة.  
أحلم بذلك، وأجادل نفسي، لا أستطيع أن أبتلع الأمر، سأموت  
محتنقًا، مكئمًا في هذه العلبة السوداء. حتى وإن كنت محاظًا  
بجليد براق، فإنني أتمدّد في حفرة، وجسمي عارق في الظلمات.  
لا أتحمّل أن أظل محبوبشًا، قلقًا، هنا زفير آخر، لا الخبز  
ولا النبيذ يعبران ممزّ الحلق الضيق. لا الكلمات ولا الهواء  
يصلان إلى مدحة صوتي المحتنقة؛ الأضلع تحبس الرئتين  
مثل الحلقة الحديدية التي توضع حول البرميل. لن أعبر، لن  
أتمكّن من ذلك. في هذه الساعة لا أمل في مجيئها، سوف  
يغمر عليّ قبل أن أراها، سأموت قبل الولادة، لن يمحو  
الفجر الليل، ولا أمل في رفع هذه المعاناة، لن يندمل هذا  
الجرح، بحيرة من الدموع تملأ الصدر بلا أمل في النجاة.  
لن أبصر النور أبدًا. أتقبل الأمر. أعلم أنّي سأظل في الممر،  
وأن الجسر سينهار، لطالما علمت أن كل شيء إلى هلاك.  
تأكد الدليل من كون الحبل مئيّنًا في الفأس المنغرس  
حتى نهايته. مُتصنّعا الشجاعة، أتقدّم متباطئًا نحو  
الهاوية السوداء للصدع الناصع البياض. نظرت لمرورني،  
وجدت نفسي عند الجانب الأعلى. إنه سياق عظيم وجميل.  
إنها الفرحة.

يحكي مرشدي جان إيف هوبو، أنه،  
رغم ثباته وتراشه، فإن أحد رايته  
سقط في شق. اقترب من الهوة  
ونادى: أجاب صوت من أسفل.  
وسرعان ما أنقذ هذا الرجل  
من خطر الموت. ولكن، يا  
للمفاجأة، خرج شخص  
آخر من الهوة في رأس  
الحبل، يتلوّه الشخص  
صاحب الحادثة. المجد للمرشد  
الذي أنقذ شخصًا معزولًا سعيد  
الحظ، كان يعتقد أنه في غي عن  
جسر الحبل.

عاصفة على اللون-بلون فيلم لآرنولد فانك  
Tempête sur le mont Blanc,  
film de Arnold Fanck, 1930.

الصفحتان التاليتان: مون  
هواسكاران، 1995.

mont Huascarán, 1995







أهو النبي؟

العطى

ما الأتشد متانة من

دعونا نحتفي بانتقام المحتاحين؛ نقول عن هذا الرجل، يا  
للمهارة! نقول عن هذه المرأة، يا للأبتسامة المليحة! نقول عنهما  
معا، يا للموهبة! وأعجبا! صوت الكمان، سرعة الذهن في الهندسة،  
البرونة في اللعب بالكرة، المهارة في استعمال أدوات الحفر والجراحة! يا له  
من حصيف، يا لها من حكواتية، يا له من عا! كيف لا نحب دكاء بهذا النضح!  
آه! إنها نعمة من خارج كوكب الأرض!

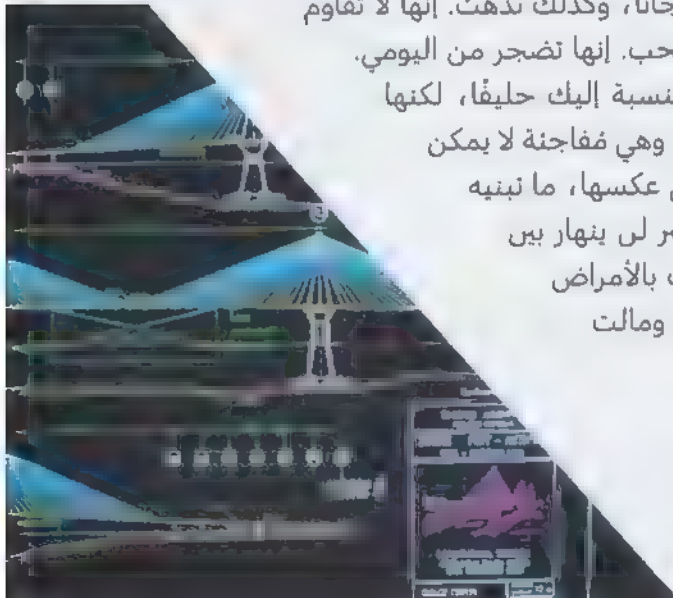
بالضبط، في اللحظة التي تؤذون فيها العبور، تأملوا منظر هذا الجسر الثلجي أو الصحري  
المنتصب أمامكم، كما لو أنه أقيم لستعمله، فمن أهدانا إياه؟

تأملوا الآن الضرب الثاني من الكد: يا له من عمل، يا له من تنظيم! ضعيف الموهبة، متواضع، مثاب،  
كادح، مرتاب في ذكائه، انظروا إليه كيف يكافح! يستيقظ منذ العجر، من دون أن يشتكي من كده.

ضد الزلازل والتسونامي، ورغم الحوار الخطير للمدن المعمورة، يعمل المهندسون والحدادون Les armaturiers  
(اسم جديد، ألححت حتى يُطلق على الحدادين القدماء) والبتاؤون بمثارة على بناء جسر رين Ron  
بالنسبة إلي، أراهن على أن الصبر يؤتي أكله مع مرور الوقت، أكثر مما تفلح فيه الموهبة في اللحظة الراهية. عند  
الوصول، تحصل مفاجأة، لقد فازت السلحفاة بالجائزة.

تنهار الجسور الطبيعية، وتتسع الهوات بفعل التآكل الذي لا نبتئنه، ومن جراء الزلازل التي تغلب كل شيء رأسا  
على عقب. الجسور التي أطلقها الرومان والصينيون القدماء، ما زلنا نعبرها إلى اليوم.

بالأكيد ينبغي أن يكون هناك معطى، وفي ظروف حيدة: أن يضيق النهر، وأن تدغم الصخرة المراسي... إلا  
أن المعطى ليس كافيا. حذار من ضربتك المباشرة، ينبغي أن تخدمه أكثر من الآخرين جميعهم، ما دمت لا  
تعرف من أين وكيف جاءك، يمكنه، بين لحظة وأخرى، ودون سابق إنذار، أن يتحلّى عنك. لم تعد لديك  
ضربة أخرى خلفية، وضربتك المباشرة لم تعد تفيد. تأتي النعمة مجآئا، وكذلك تذهب. إنها لا تقاوم  
الحواجز، والغضب، وآلام البطن، والخيانة، والغيرة، وشقاء الحب. إنها تضجر من اليومي.  
وهي تتبخر عند أقل معاكسة. حذار من موهبتك، إنها تمثل بالنسبة إليك حليفا، لكنها  
ستعمل صدك خيانة. النعمة متقلبة، إنها تقفز وتنحني مثل ماعز، وهي مفاجئة لا يمكن  
التنبؤ بها، هي إلهية، وسرعان ما تغدو شيطانية. تجري الأمور على عكسها، ما نبتئنه  
ببطء، يطمئنك لفترة طويلة. بما أنك تعاني عند بنائه، فإن الجسر لن ينهار بين  
عشية وصحاها. لقد تباث بالظروف الصعبة، ثم تحمّلتها، تنبأت بالأمراض  
والضربات الموجهة، والخيانة، لقد عملت في جو من اللاطمأنينة، ومالت






جسر  
ريون Rion  
(اليونان، 2004)،  
العملاق، يقوم على أسس  
فاخرة على الانزلاق في حالة  
زلازل السائل أكثر أماناً من الصلب

نفسك، في بعض المرات إلى اليأس. كم مرة قلت في نفسك: يعوزني كل شيء، لكنك مع يأسك تمسكك بالعمل؟ تدوم نتيجة العمل حسنت الوقت الذي كلفه. وسوف تستمر لمدة أطول إذا لم تجد الحياة فاسية. وبالعكس، بما أن النعمة تنزل من السماء، فإنها تتبخر نحو السماء. تقدم لك الشمس هدية، فيأخذها منك الشهاب. يسمح لك حب النظرة الأولى بهذا اللقاء الجميل، يزئنه بريق السماء، لقد أخذت تلك المرأة، لكنها ستتخلي عنك. تنتقم المدة الحاقدة مما فعلته في عيائها. بما أنها فتاة جيدة، فإنها ستكافئك لكونك أخذتها بعين الاعتبار. يلمع العشق ويحرق، إنه قاتل. ابن شيتا فشيئا حبا بطيئا قويا، بصبر كبير، أضف إليه كل مساء حبلا مهترأ، واثنين من أكوام الورق، وثلاثة قضبان من الحديد، ودلوا من الإسمنت، وطلاء ضد الصدأ، ومكابس طويلة في حالة حدوث زلزال، فإن الجسر سيدوم ويخلد.

ثققي كاملة في جسر ريون Rion.



A black and white photograph of a bridge, likely a suspension bridge, with a sign that reads "ROAD". The bridge is set against a backdrop of a dense forest of tall, thin trees. The image is slightly faded and has a vintage feel. A diagonal white line cuts across the bottom left corner of the image, separating the text from the photograph.

هل سينكسر،  
أم لا؟ لماذا  
نثير السفطة، التي  
هي مؤلة أو مأساوية،  
الضحك بسهولة؟ ضحكت  
في فيلم Mécano de la  
General إلى حد أنني أحببت أن  
أعرف لماذا بدا لي هذا الجسر المثلثي تحت  
القاطرة هزلاً إلى هذه الدرجة. ربما ينبغي أن  
نقول، إننا نساقي لقسوتنا: المضحك يقتل أو ما  
يقتل يثير الضحك؟ بوستر كوتن Buster Keaton،  
1927. هل سيتحطم أم لا؟ لم يكن الشيرياس يعبرون بعض  
جسور الحبال على مضايق الهيمالايا، إلا بعد الصلاة، وعلى  
غرارهم، فإننا لا نضحك عندما تنفك عقدهم الموتورة

في الوقت نفسه الذي كان كل ضحية من ضحايا الزلزال يشعر بالكرب،  
ازداد حماسي، على العكس من ذلك، بدلالة شدته. كنت محظوظا  
بسماع أرغانات الأعماق، فأرتعش مع الأرض، وأرى المنظر  
يرتعش ومشهد القبح المعناد بنهار. كما لو كان هناك  
مطلب بالحمال الكوبي يسعى إلى التخلص من  
ذلك القبح. رغم أنني كنت أناألم لذلك،  
فإني كنت أفتن برويه المطاهر  
وهي تنفتت، كما لو كانت  
ستفصح عن سر الواقع  
.Kobe, 1995





## شهز عسل زهبي لم يتم.

هتأ تجيسي وهاري هوتشينسون مسار رحلتهم بعناية. كانا قد تزوجا منذ خمسين سنة، ولم تعكر فصل الربيع، وهو ترك مطعمه لاس أحيه. كانا منظمين، حريصين التدريس خلال فصل الحساسات، وقعا الروجان ميايلى الى الاستقرار، وصادقا على قرارات التوثيق، فلم على الإنقان، وقعا الروجان ميايلى الى الاستقرار، وصادقا على قرارات التوثيق، فلم يهملأ أية وثيقة. كانا خلال حياة تكاملها من الالاتار والعمل، قد قررا مشروع اختراق بمغامرات، فكانا وثيقة. كان الروجان ميايلى الى الاستقرار، وصادقا على قرارات التوثيق، فلم أمريكا الشمالية، ما إن بتحررا: كندا، الولايات المتحدة، المكسيك، من الاسكا الى يوكاتان Yucatân ومن سياتل الى نيوفاوندلاند Terre-Neuve. متوشلين بأطلس الخرائط، وتقرير المواقع التي عليهما ريارتها، بل انهما ناقشا حتى مسألة لمحات الرحلة، وتقرير المواقع التي عليهما ريارتها، بل انهما ناقشا حتى مسألة والهنود والحشب الأحصر وشعاب الجبال.

حل اليوم العظيم. في الصباح الباكر ليوم 17 أكتوبر 1989، ركبا منشرحين على متن طائرة يونايند كي تنقلهما من غير توقف من سينسيناتي الى سان فرانسيسكو. قالت تجيسي وهي تشد حزام السلامة: هكذا تنتهي حياتنا القديمة يا هاري. رد عليها هاري: مرجى للحياة الجديدة. استأجرا عند هيرنز، كما كان مقرزا، سيارة بليموت بعد الظهرية على المحيط الهادي، أربعة مقاعد، وصندوق متسع، وإطارات شبه جديدة، على مقربة من المقرة على أربعة مقاعد، وصندوق متسع، وإطارات شبه جديدة، وزدية اللون، تنوفر على أربعة مقاعد، وصندوق متسع، وإطارات شبه جديدة، وانطلقا في حماس، كي يحققا أخيرا رحلة زفافهما الذهبي. طقس صاف، سيم من الماء. تجيسي أمام المقود، وخارطة الطريق في يده، غرفة مزدوجة محجوزة على الجانب الآخر من الزوجين المستين الهادئة نحو قنطرة باي بعد الخامسة ودقيقتين تقريبا.

هز الزلزال الذي تبلغ قوته 7,2 ومركزه نحو دروة لوما بريتا Loma Prieta، انطلقا في حماس، كي يحققا أخيرا رحلة زفافهما الذهبي. طقس صاف، سيم من الماء. تجيسي أمام المقود، وخارطة الطريق في يده، غرفة مزدوجة محجوزة على الجانب الآخر من الزوجين المستين الهادئة نحو قنطرة باي بعد الخامسة ودقيقتين تقريبا. انهار جزء من الطريق. شاعت الصدفة أن يهوي بالضبط تحت العجلات الأمامية لسيارة البليموت الوردية. سقطت السيارة فعلق ت أفقيا من غير حراك. شوهدت في اليوم التالي على الصفحات الأولى لكل الصحف، كان يمكن أن تكون نعشا للمسافرين، لا أحد منهما عرق في الرمال. لكن، يا لها من بداية جميلة للرحلة حيث اعتقد المسافران أنهما سيتوجهان إلى الفندق، فانتها بالسقوط في بئر!



تُولد البلدان المعرضة للزلازل ثقافات تأخذ في حسابها المتغيرات  
التقنية، إلا أنها مبحرات مصبوعة بالطابع القديري. هذه البلدان  
تتبر إبحاري Kobe, 1995

# لعبة

يحترق حشر أوروبا السكك الحديدية مباشرة قبل محطة سان

لازار Saint-Lazare، ليس بعيدًا عنها تبتدئ رواية إميل زولا الوحش

البشري قراءة طويلة لبعض روايات زولا، وربما لها كلها، وتفحص الحطة التي تنظم

مجموعه Rougon-Macquart ألهماني قديمًا الحداث الحاذق أن المؤلف قد كتب أعماله وفقًا

لقوانين لعبة الإور وشكلها. إن خطاب روايته يشع رميات بردي ترسم عشوائيًا مساره. من أجل المعامرة،

يصعب أحدهم في مناهه، أو يرباح في فندوق، والآحر يقع في النير، وآخر يشل السحن حركته، وغيرهم يكرر أو

يتراجع في بهايه الأمر، في حين أنهم كنهم يسرون يفينا نحو الموت. يعبر الجسر مرسى. يتعلق الأمر هنا بحشر أوروبا

التعداد المناسب لهذه الصعوبات وهذه السهولة الوحيدة، أني نمنرح في السرد، يشبه القوصي التي تتعرض لها الحياة قبل

احتمالي المقبل، حصل لي في الأماكن التي صاعقها بيهي العدرى، ألا احشد إلى النوم كنت أليه تتؤده في آلاف مياهاات العلائق

انهية أو العاطفة التي عالما م تكون عسيرة، ومناهاات أعمالي التي تكون صعبة على الدوام أهواء لا نطاق تربطي سحيننا بالحبر

والماء اللدن لا يبتلعان، لا كنت عليه من احتناق مئات المرات، وقعت في احندق نفسه الذي يمتد على طول طريقي، كشيء

يحبب الاندهاش والإعجاب أعالي من محطات طريقي، من غير أن أعرف كيف أرسمها، إلا أن الحسور سهلها في بعض الأحيان.

لم يسعفي السحن ولا السر ولا المتاهة في شيء، كل هذه الأمور تساعد على الموت، بل ربما حتى الفندوق، مكان الاستكابة

الكادية. بما أني لا أنام على فراشي إلا نادرا لمدة أسابيع متتالية، فقد وصعب حقيني في عشره آلاف مكان خهر أحسن

تجهير سحابات المروحه وأجهزة التهويه الصاحبة، وبالثلالات التي لا تروم لها، ولكنها مرعحة الصوت، وبالحمامات

التي يندفق الماء من جدرانها، وأخيرا بموسيقى متعددة الأنواع، لا تكف نرن ليل نهار، في الممرات، وعند الحيران،

وفي المطاعم، وهي من الارتفاع إلى حد أن المرء يتساءل ما إذا كان أصحاب القنادق يحرصون بالفعل على خلود

ربائهم إلى النوم. لو كنتم تعرفون فندوقًا صالحًا لليوم، سأبعث إليكم عوبي كي ترسلوا لي عنوانه

وحدها الحسور تأتي ليحدثني كي أنام؟ لم أشعر براحة إلا بما توفره أكوامها وسطوحها

من سعادة. كتبت هذا الكتاب احتفالًا وامتنانًا بالعمل الوحيد لمسراني.

سارت حياتي النافهة وفق لعبة الإوزة. فهل تسير الحكايات كلها وفق اللعبة نفسها؟ عرف أوليس سجن البوليفيم Polyphème، العملاق وحيد العين مشبوه بين أعامه التنه. اكتشاف البرل الاحتفالي لألسيوس Achenos وبنته نوريكا Nausicaa، وهي غارية، ساحرة على رمال الشاطئ، يحرك عبر المناهة اللامتناهية، اللهم إلا إذا تم الأمر صدفة، إلى الاستحمام المتكرر، المسقي بآبار مرعية، والعواصف والعرق، ناهيك عن سجون الأوحال المترسحة، وناهيك بالأولى عن المناهة المحلية للتحوّلات التي يسببها شراب سيرسي Circe لأصحابه. أصعوا الآن إلى ما هو أحمل: كان الإغريق يطلقون على البحر نفسه جسراً. لم يكف أوليس عن عبور الجسر. يا لينتي وُلدت هيلينثا تحكي الأوديسة إدس سيرني الدانية، وسيرتك أنت، ومن دون شك، معامرسا المشتركة التي تفوقها الآلهة - لكن، أية آلهة - نحو الرد. لكن، من يستفيد من لعبة القدر هذه؟

ألقي إحوة يوسف بأحيمهم في السحن، والحت، والصهرح انتطرت رفقة وراحيل قرب نر إسحاق ويعقوب، الظمانيين، فسكبنا لهما الماء. تنشأ المحنة القوية حول هذا السع الذي تتدفق منه المياه العذبة. بعد سحن مصر، قضى الشعب اليهودي فيما بعد سنوات في مناهه الصحراء في انتظار أرض الميعاد إلى أحل غير مسمى. فهل سيحيء المحلص؟ وهل سيعبر اليهود الحسر الذي يربط البارح بالقديس الذي لا يصور؟ أم أن المحلص نفسه هو الذي سيبصع هذا الحسر؟

أي حكاية لا تتبع لعبة الإوزة؟ أود أن أحكي بدوري، رغم أن مراجي لا يسمح، حكاية بلدي فرسا، التي لن نعرف ربما أنذا من ذا الذي فيها يحرك برديس ليرميها على غاسكوبيا Gascogne أو اللوريس، على بروتانيا Bretagne أو البروفانس Provence. حينئذ سنظهر المناهة البعيصة لحروب من غير هدية ولا سب، حيث يقتل الآباء أبناءهم بانتظام كما لو أنهم يكررون الفعل ذاته عند مفترق الطرق نفسه، كما سنظهر السجون المظلمة للشعب، الذي كان قديفا مكبلاً بملوكه، فعدا مقبذا بالإدارة. زوروا هنا الفنادق وقصور لالوار Lore، وقصر فرساي، والمارل العنية في بورج Bourges أو ديجون، تأملوا الآف الآبار لكوت روتي Côte-Rôtie وترامي Traminer، وأنجو Anjou،







بمر الوجود بالاف العفبات آدر، سجون، سدود وجواجر مصغه بطريقة عشوائية. هذا هو السبب في أن الحياه تعري مثل ما  
تغري حكاية مروية. سأتحاور مع ذلك هذه الإراحات، اني تكون حمية في رواية، وسينة عندما تناعب لدا ساعي الحيات 6  
و12، حيث يتم فتح أقواس حشرين. كأن الحية هيأ تحت أقدامي اممر السهل لهوة' بل إني أحلم أنه في الحانه 63، وهي  
الحانة النهائية والرابحة -يا للتناول- حيث نسح الإورة في بحيرة فردوسية، أحسم أن حسزا آخر يمتد في الأفق  
لعبة الإورة في القرن التاسع عشر

الصفحة السابقة: مبادل الطريق، دنفر، كولورادو، 1998  
échangeur routier, Denver, Colorado, 1998

وبورغوني Bourgogne أو بوردو، التي يتدفق منها  
النبيذ كل موسم... حينئذ، ومن أجل الجسور، كتب مونتيني  
Montaigne، في توازن بين القدماء، الرومان والإغريق، وبين هنود العالم  
الحديث، كما ألف فوري Fauré بين الحب ونشيد الأموات، في حين أن موني  
Monet انللق على زبايق الماء الهشة، ودوييل Doyelle ولافيي Lavigne وقعا بناء  
جسر النورماندي. لغة الإوزة بلغة شمال فرنسا سترجم بلغة جنوبها لغة اللوك.

أخمن أن السردية الكبرى تتبع اللعبة نفسها. تلعب الطبيعة لعبة الرد سواء في الفرياء الكوانتية  
أم في الطفرات العشوائية للكائن الحي. فهي تستنج قوانينها وتنسجها، وقد صبغت بدلالة  
جوار الرمن وعدم خضوعه للضرورة. إنها لا تعلم أين هي ذاهبة. تتعثر في بعض الأحيان وتثورط،  
كما في السحن. تتقدم وتعود لتراجع، تكرر، تتوقف، تنسحب، وتندفع فجأة في تسارع غير  
متوقع، كما هي الحال في مناهة. أهو الموت؟ تذهب الأنواع، والنجوم، والعوالم، والثقافات،  
والأفراد... ورورقي، بما فيه من أجسام ومتاع. تتشكّل آلاف الآبار عند الثقوب السوداء. تقيم  
السردية الكبرى جسوزا، وهي لا تكف عن ذلك، فتربط المادة بالضوء، والجسم العاقل  
بالحي، والطبيعة بالثقافة، والقديم باكتشافات هذا الصباح، وعواطف الحب هذه  
بدماع في مثل شيخوخة النقاط الساخنة للمحيط الهندي... وتربط كذلك  
زمن جسدي، زمن دزاتي، بديمومة العالم.

يا لها من لعبة كبرى للمعرفة تربط دمي بكوكبة النجوم!

# جدران ومدن وجسور

أعتقد أنني أكره المدن.

أعتقد أنني أكره المدن. أكره البذخ الكنسي القوطي الجديد فضلاً عن المسرح السياسي، المزود بالتمثيل بشكل رتيب: جوبيتر Jupiter، وتفاخر الجدران العسكرية والنصب التذكارية للأمم: مارس Mars، البناء الاقتصادي والمالي: كويرينوس Quirinus... يزعجني كل هذا العرض غير المحتشم للمعمار الهندسي الذي ينشره الطغاة لسحق البشر. هذه الأحجار التي نُحتت على شكل مربعات، أو على شكل نقاط حادة، وهذه الاستقامات المنفجرة، وهذه الكاتدرائيات القاسية ذات المشابك الحادة، وهذه القلاع المركشة بالشرفات، وناطحات السحاب المتباهية، كل هذه الأشكال من العنف الجامدة، تطرد حرّتي خارجاً نحو الأرياف.

مدن الموت: هي العواصم الكبرى، إنها مقابر. تحفظ المدن أكثر ذكرياتنا سوءاً: شهداء، مشاحنات، صراعات... سياسات أدت بالأبناء إلى الموت، شباب سقطوا في ساحات الرعب، هتأهم الآباء لذلك. سجن الذاكرة هذا يقتلني. في المدينة أعيش رماً بعيدا عني، أدخل بين الأعشاب والأشجار.

أكره وزارة الدفاع لشانغهاي الجديدة، أو تلك القديمة لشيكاجو ولنيويورك. يعمل بعض الذكور على إثارة الإعجاب بانتصاب يزعمون أنه لهم: أبراج أجراس عالية، قلاع مدهشة، ناطحات سحاب، انظروا إلي كم أنتعظ بشدة وعلو! أتمنى أن تبني شقيقاتنا الإناث بناءات أكثر رفقا: يكثرن من الأزقة والممرات الأفقية الهادئة، وأنفاق المواصلات، وعريشات مجهزة بالكراسي للمحادثة، وحدائق تخلو من البناءات، وجسور.

أحب جسر ماري، أحسن جسور باريس، أحب جسور بودابست وفيينا الملقاة فوق نهر الدانوب الأزرق، أحب العولدن غيت Golden Gate، الشبهي في ضباب المحيط الهادي...

أكره المدن،

أنسى عنفها عندما أخلد إلى النوم بقرب المياه، وتحت جسورها.



# جسر ماري

أحببت أن أدخل مدينة كيبيك، على نهر سان لوران، تحت جسر الكيبك.  
وسان بيترسبورغ على نهر لينا Lena تحت جسر الملازم شميت Schmidt.  
ومونتي فيديو على ريو دو لابلاتا، تحت تصوّر جسر ينبغي تشييده.  
أحب أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.

أحببت أن أدخل لندن، على نهر التاميز Tamise، تحت جسر التاور Tower.  
ولشبونة، على نهر تاغوس، تحت جسر 25 أبريل.  
وخليج سان فرانسيسكو، تحت العات الذهبي.  
أحب أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.

أيها المارون الفساة الذين تطأ أقدامكم الحسور، هل يمكنكم أن تحيلوا البعوضة التي يستشعرها أولئك الذين يمرون تحت؟  
الصورة تحت: بيسكاين باي Biscayne Bay والصورة حاسه جسر فسكو دو غاما، لشبونة، 1998  
الصفحتان التاليتان، باريس، جزيرة دو لاسيني، بين جسر نوف وجسر ماري

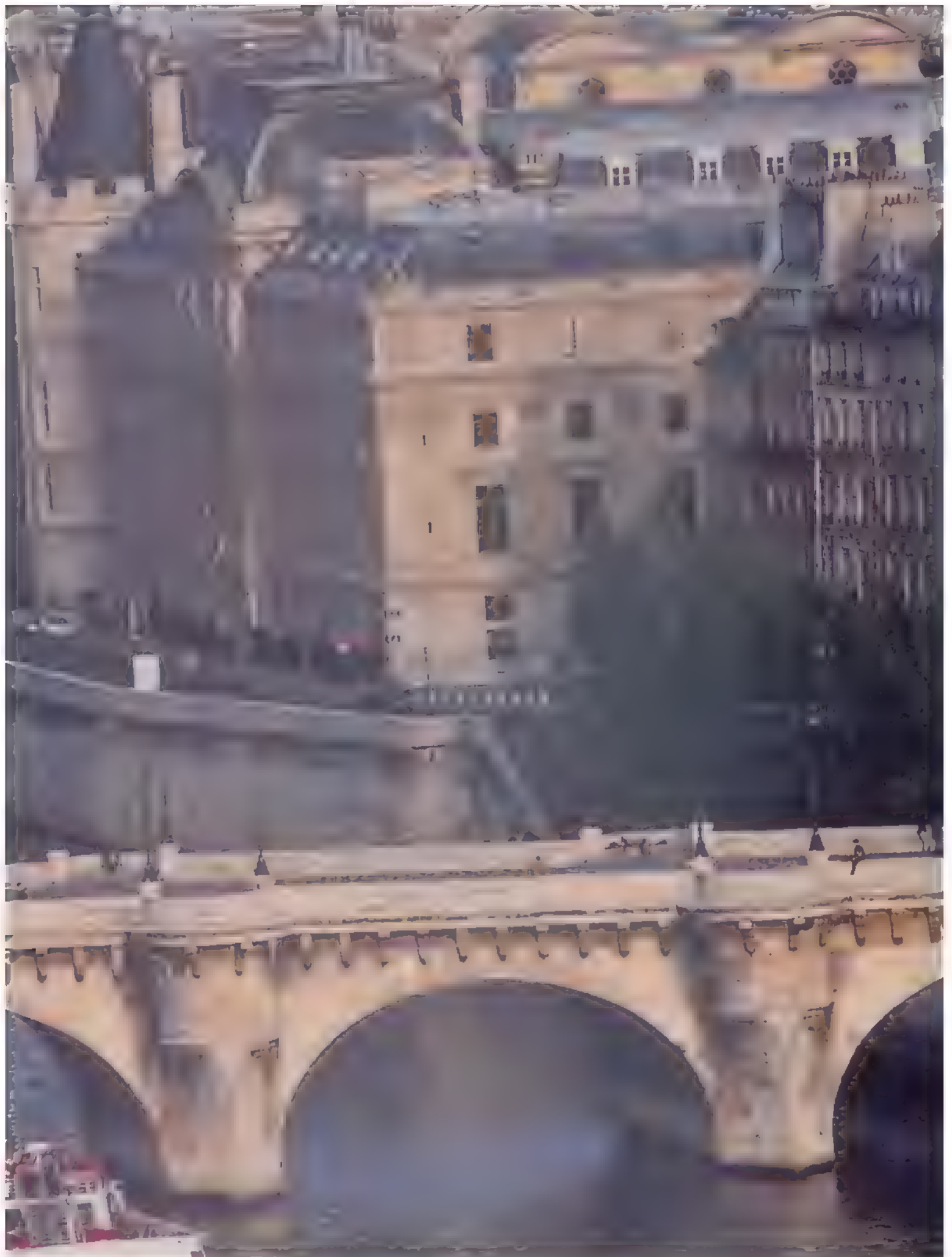




أحببت أن أدخل خليج سيدني، تحت جسر هاربور Harbour،  
ونيو يورك، على نهر الهدسون Hudson، تحت جسر البروكلين Brooklyn،  
وخليج لوساكا، حيث كان زورقي أن يتيه في فوضى جزره، بين الجسور العديدة التي تمتد عليه.  
أحب أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.

أحببت أن أدخل بحيرة بونتشارتران Pontchartrain، على أطول جسر في العالم،  
وبوردو، تحت جسر الأكييتين Aquitaine، وخليج ألونغ Along، من غير جسر.  
أحب أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.

أحببت أن أدخل بريست، على البونيفيلد Penfe d، تحت جسر الريكوفراتس Recouvrance،  
وقاعدة ريو، تحت جسر الرئيس كوستا في سيلفا Silva،  
وبوفالو Buffalo، على بحيرة إيري Érié، تحت جسر السلام.  
أحب أن أدخل باريس، على نهر السين، وتحت جسر ماري، أحسن جسور باريس.







وحدهم أولئك الذين  
يسحبون تحت بون-بوف  
(1604) يرون الوجوه التي  
تستقبلهم عند الوصول  
قرب لا سبي. أنت الذي  
تعب هذه العتبة دع عنك  
كل جد وكل مأساة، فأنت  
تفتح باريس البهجة  
بوعي-باريس.

هل حصل أن ارتعشت من شدة الرعب كتلك الأيام والليالي حيث لطح نوع من الاندفاع لصالح الألعاب الأولمبية - تلك المباريات الخبيثة غير المجدية حيث نستنسخ تحت شكل قفزات ومسابقات، الترتيب الإجمالي لثروات الأمم- جسر ماري بألوان قبيحة؟ بدا كما لو أننا وضعنا على تمثال فينوس كنيديوس a Vénus de Cnide كسوة خارج الموضة اشترتها عاهرة متفاعدة من مبيعات الأثواب البالية كي تحضر حفل الانتماء الديني أول مرة بعدوانية واستياء. هل رأى "الفنان" جسر ماري باريس، أكثر الجسور بطلاً، وأميل لأسلوب الباروك ولقليل من اللانتظام، والمتناسق مع ذلك بما تتميز به أعمدته من تعثرات، والمستقيم رغم انحناءات حزائه، إنه فعلاً مميزٌ محتشم، يكاد يكون قدسيًا؟ كم هو قليل عدد النساء اللواتي نعرفهن يقلدن هذا السلوك في سزية نبلة؟ لا تعطي باريس نفسها لأول القادمين على الفور وباستعجال، مثلما هو حال البندقية أو مدن سياحية أخرى.

لم يكن علي أن أحتفي بجسر ماري، أكثر جسور باريس جمالاً:  
لا داعي إلى إشهار الروعة الحقيقية المحتشمة.

## أجسام ميتة لإرساء جسر

يحكي ميشيل برنار، وهو ييني، من أجل فانسلي، حسر فاسكو-دوغاما، على بحر القش الذي يوسع تاغوس Tago، في لشبونة، أنه اضطر في الأيام الأولى أن يفرض على طاقمه أن يبتلوا بالماء أجساماً ميتة كي يتبينوا النقاط المحددة التي يتم عندها إرساء الأعمدة. بما أن العمال كانوا يتشاركون ثلاث لغات على الأقل، الفرنسية والإنجليزية والبرتغالية، فقد زوّد المكاتب بالعدد نفسه من المترجمين. لحسن الحظ أن اللغة الإنجليزية تطلق عبارة dead men على هذه التجهيزات البحرية. لكن،

ما الحال بالنسبة للبرتغالية؟



هل تترك الصلابة، السوداء للصاري على شكل حرف H ، المكان لحفة الحبال وبعمومة لأصوات التي تبعثها هذه، لاوتار؟  
فل أن يقوم هذا العمودي، أحسام مينة دعمت هذا الاهتزاز الحي. غالبا ما يعتقد أن أمواك برفدون عند أسس الجسور. كثير من الحكايات  
تروي ذلك، جسر فاسكو دو غاما 1998،  
لصفحتان التالبتان، جسر ريون-آنتيريون، اليومان، 2004

بعد يومين، استقبل ميشيل برنار في مكتبه، زيارة مفوض الشرطة، محاظا بمساعدين يحملون أصفادا. سأل رجل  
القانون، مقطبا حاجبيه: كم عدد العمال السريين الذين تُغرقونهم كل يوم؟ عمعم المتهم مستاء، خصوصا، وأنه رأى  
صورته على صفحات جريدة الصباح مرفوقة بالتهمة. كانت الصفحة الأولى تنهم المقاوله بأنها تقتل العبيد. ذلك أن المترجم  
البرتغالي، عديم الخبرة، كان قد ترجم «أجساقا ميتة» بالجنث.  
ابنوا حسرا ححرثا أو حديدثا، لكن شريطة أن تسوا قبله جسرا بين اللغات.

وهكذا يذهب الناعم الصلب. من كان يصدق هذا؟

## 2- الجسور الناعمة






## موسيقى وضجيج خلفي: جسر نورماندي

قبل أن تتلاشى أحجار رصيف طويل يسير  
مع التيار في البحر، كن جسر نورماندي، داك  
التمثال ذو المحورين العاليين المزركشين بأسلاك، يقف حاجزاً  
صد مصب نهر السين هل تحف هذه العنبرة الموضوعة هنا ضجيج  
اضطراب الأمواج وصفعات الريح؟ من يصغ إلى ما تسر به من صخب الرياح والمياه  
العوضوي، فسندرك روعة هندستها بعرض أودرها محبت الرداد والسيم لعنيل كي  
تعرفها في موجات منظمه، مسموعة أولاً، ومساعدة فيما بعد طبيعة في البص، حطام، عتس،  
غرق داخل البحر، وثقافه في السبع نحو مدينة زووان ١٩١٠، ١٩١١ وباريس وهضبه لانيعر ١٩١٢، ١٩١٣  
بالتأكيد، إنها نحتار النهر من صفة إلى أخرى، ولكن طاهرنا فحسب، ذلك من اعتبر بيم في الحقيقه  
بصعود نهر السين، من المحيط نحو الحقول وبلدن المروعة، ومن الصبح اعيقفه إلى الاضطراب  
المهذبه، ومن الموجات البريرة نحو العدة إذا رجعت انفقهرى على انهيار النحمد البهري، سيكسيف،  
فيما وراء المياه المتوحشه، فريسا الي تلفت تربيتها وثقافتها صد الاف السين من حل هذا التحول،  
كان يلزم حسز-قيثارة

كل فن عظيم، صنه الموسيقى، لانها تحوّل الصوصاء الحقيقه إلى معنى أولى سخلص فصر العدائه  
بمدنيه رووان بشكل منهج من اندهماء التي نصيح "للسقط" امام كومة الحطب التي سحرق  
حسن دارك تغلف بويردام بافوسها إرعاحت باريس، ويعطي أروعها نعظم الالبواء  
للقوتة لواجهتها وأحيزا، نحو مدع النهر، تلك المتابع الي عنها وفوق ١١، ١٢، ١٣  
بالمناقصه بين السدل السحدره التي سداحل بداحلا عشوائيه، كان ديدرو ١١، ١٢، ١٣  
بلقي خطبه امام الطرش ولكن، قبل رووان، باريس ولانيعر، وضع عبقري  
فرسي انركه الي سمحت بوجود جان درك وبويردام وحاك ١٩١٢، ١٩١٣،  
ذلك الجسر الذي يشكل تحفة القرن العشرين. كل فن عظيم يصنع  
آلة موسيقية، آلة الترشيح التي تترجم الضجيج. لسماع شيء  
ذي معنى، يكفي عبور هذا الجسر، قيثارة أو رباب، ولكن  
بمعنى المياه والرياح

ألا ليت سطور هذا الكتاب، وأسلاكه، تهتز بفعل السيم



ما رائعة القرن، أهى نثر بروسى Proust أم معزوفة  
لرافيل Rave أم نسيج من الأكاديب لماكس إرنست  
Max Ernst أم هى فيلم لفيلى Feilini  
دع هذه الأعمال الباعمة، واحبر حشر  
نورماندى Normand e (1994).

ستحد فيه كل شيء: أشكال  
القبوس الشكيبية وقونها،  
ساسق علائقها، أباقة  
ما يصدر عن غضب  
لباء فيشير نحو  
الأعالي.

## قنطرة ملّو Millau



تحمل قنطرة ملّو سبعة أعمدة،

وبالتالي سبع مرات، حزمتين من أحد عشر

سلكًا، لا شيء غير الأعداد الأولية. هناك أصحاب آداب،

ثم هناك أصحاب حساب. أنا أحيا وأفكر بصحبة الأعداد، أحلم

بها، وأتذكرها، وأعتبر عنها وأغنيها، لشدة ما تخدم الموسيقى. هل لاحظتم

الوضع العشوائي للأعداد الأولية بين متتالية الأعداد الصحيحة؟ إذا استعرضتم بداية

سلسلة هذه الأعداد، فبإمكانكم أن تنتظروا طويلًا، فهي تأتي دون سابق إنذار. على

طول السلسلة اللامتناهية، تزرع جواهر لامعة، وغير مرتقبة.

وهكذا فهي تقدّم نموذجًا بسيطًا عن العالم وعن البشر. يهّؤوا إذن في الفضاء الشاسع،

سيروا مشيًا على الأقدام، وسافروا بحرا، برًا أو في الهواء، فإنكم ستصادفون فجأة إحدى

هذه الكرات من الامتداد الثمينة، والتي يضبط صوتها بشكل عشوائي إيقاع تنقلكم النهر ههنا.

ترزّن أماكن جميلة العالم مثلما تدهشكم الأعداد الأولية ضمن سلسلة الأرقام. لا تتردد إذن

في أن تشتت الحشد أو أن تلتقي بالمنعزلين. فجأة، ها هي امرأة حياتك، وها هو العبقري، أو

الرجل البسيط الذي يوائم بينكم وبين القدسية. في العالم أماكن أولية كنجد ميجان Méjean،

ومرتفع سيرفان Cervin، ومحبوبي. من الناس أصحاب آداب، وأصحاب حساب، نساء ورجال

كانت

السما

تمطر، حين

كان عليّ عبور الوادي.

رافقي حين. كان يحمل في

يديه سبع مظلات، كان

يستبدلها عند كل عمود.

خرجت من الهاوية

بفصل حمايته من

التكرارات ما يرهق،

ومنها ما يريح

مثل تكراراته.

كونه يذهب للبحث، ضمن  
أنقى ما في النقاوة، عن أكثر  
البساطات شفافية، والمكونة من  
خطوط وزوايا، كي يصنع منها، على  
نطاق أوسع، صورة عن واقع يخفيها، رغم  
أنه مصنوع منها، فذلك تمثّل عجيب عن الحقيقة!

ذلك أني أنوي أن أعثر، في الوادي بكامله الذي يشرف عليه  
الصرح، على عشرة فروع من الأشجار، ومئة أعشاب متواضعة،  
وواحد وألف شبكة عجيبة من اللمعاويات، والأعصاب والدماء في  
الكائنات الحية، وملايين من البلورات، ومليارات الحزينات أو  
الذرات التي يقلد شكلها وزواياها ونسبها وأعدادها، خطاطة  
هذا الجسر، أو يعدل منها. أمر غريب وسط البيئة، فهل  
يخلقه مع ذلك كمصفوفة رياضية؟

يجتسر التجريد الواقع بكليته.

يضاؤون الأعداد في أوليتها. لا يمكن  
لقنطرة ملوّ، بما هي معزولة تمامًا عن  
البيئة، وبما هي ذات شكل هندسي، متعدد  
الثلثات كما الأصل الأفلاطوني للعالم، وبما هي  
ملتوية كما النشوة في منتصف عمر قاس، كلا، لا  
يمكن لتلك القنطرة أن تتظاهر بالاستقرار في البيئة،

كما يقال اليوم، وذلك لأنها تمنع الوادي مثل خطاطة  
لا علاقة لها به. تصل إلى هذا المكان كما يحصل للرياضيات

أن تهاجم، ذات صباح، الأطفال بعنف يشبه الصاعقة، من  
غير تمهيد ولا مقدمات، بفضاظة، تحاكي في غرابتها باخرة ذات  
صواري سبع على أرض الهابسة، أو آلة موسيقية ضخمة في وسط ريفي  
عادي. هل تتذكرون لوحات هوبير روبير Hubert Robert التي تضع  
الخطيرة، بكلئها وأبقارها بين حطام المتحف الكبير للوفر Louvre؟ أحب

هذا الغريب، خبزي اليومي. نعم، إن الفن يخترق الريف من غير أن نراه. نعم،  
إن الأمل يلمع كحبة فحش في الخطيرة. نعم، إن الفخامة تطارد التقرم. نعم، بعض  
الحيوات البائسة والعاشلة، يمكنها أن ترقى نحو نجاح متفوق. نعم، إن الصوري  
النادر، يمكنه أن يطارد الواقعي الثري. نعم، يضم العالم الهندسة، التي تعمل بدورها  
على تشكيل الكون وصنعه. نعم، إن اللانهائية النادرة للأعداد الأولية، بما هي مشتتة  
ضمن لانهائية الأرقام، فإنها تولد جميع اللانهائيات الأخرى. نعم، بما أن المجرد أكثر واقعية  
من الواقع، فإنه يبني الواقع ذاته. إن كون مهندس يعمل، على خلفية فال العملاقة، على إبراز  
الطبيعة الحقيقية للأشياء، وسط ثروة تافهة تكرر يوميًا عكس هذه الحقيقة البديهية، وكونه  
يثبت للأشخاص الذين يسرعون لرؤيتها، أنها تتشكل عن طريق الصورة.. فهذا لعمرى خبر سار! إن



بين زرقة السماء واسحب، وعلى العشب  
الأحضر، والأررار الذهبية ومدادات البراق،  
أراهن أنني سأجد دون صعوبة بلورات وخلابها  
وجزيئات وبروتينات، وأشكال ذرية، يحاكي  
شكلها انتشار هذه الحيوط وهذه الأعداد، وهذا  
السطح العمودي، وهذه الأفقية الدقيقة،  
ومحمل القول، هذه الدقة العملاقة تعنفد  
أننا وحدنا قادرون على بناءات ضخمة لأشكال  
هندسية، كلا، فإن الأجسام العاطلة تكرر  
في الجسيمات الصغيرة وفي الأجسام الكونية،  
أما الكائن الحي، فهو يقلدها في جانبها المصغر.

جسر فيادوك دو ميلو، 2004.



## تجسير 1

بقارب بين صفتين. على جسر كيهل Kehl، نرقص في الوقت ذاته في ألمانيا وفي فرنسا، لا في فرنسا ولا في ألمانيا، لا هذه ولا تلك، فيهما مغا. أهو المنطق الشيطاني على جسر الشيطان Diable، في كاهور Cahors، على نهر اللو Lot، أم هو المنطق الإلهي على جسر الملائكة Anges، على نهر التيبر Tibre في روما؟ مرة أخرى أقول: هما مغا. ذلك لأنه إذا كانت المعركة على أشدها في جسر أركولي Arcole أو على جسر نهر كواي Kwai، فإن الحب يجمع بين الأنثى والذكر في عملية لا يمكن لأي كان أن يعتمها بالمدكرة أو المؤنثة.

ألا تسخر الراحة والسلام والسكينة، مثل السعادة والوفاق والافتتان والوجد، من المنطق؟ للقلب أشكال من الدقة لا تعرفها الدقة نفسها. من غير جسر، ما من طريق. أعني بهذا ما من رابطة من نقطة إلى أخرى متميزة عنها تمام التمايز. من غير جسر إذن، ليس هناك منهج، وأعني به طريقاً من الذات إلى الآخر. ولكن، ألا يسخر الجسر كذلك من المنطق أو المنهج؟ كيف؟

بأية أخشاب، بأية أحجار وأي إسمنت ينبغي بناء الجسور كي تتمكن من الربط بين صفتين مختلفتين؟ كيف يمكن للمادة عينها، خشباً كانت أم حديدًا، أن تلمس في الوقت ذاته اليمين واليسار، فرنسا وألمانيا، الدنيا والفردوس؟ سرُّ البساطة نفسه في خطوط الربط، وما هي ثلاثة أمثلة على ذلك. إذا كان الكلب-الذئب يجمع بين اثنين من الكليات، أحدهما لاترانس latrans، والآخرى لوبوس lupus، الأولى متوحشة، والثانية أليفة، فيبقى أن هناك سلفاً مشتركاً يقرب بينهما. المثال الآخر إدراكه أكثر صعوبة، فالوضوح-الغامض يمزج ضوءين متعارضين، أحدهما يشع، والآخر يعمي. مثال ثالث يذهب بغموض الربط وبساطته إلى الحد الأقصى، فيسوع-المسيح يجمع بين اسم سامي وصفة إغريقية الأصل. وهكذا فهو يؤسس لعهد ستنخلي فيه شعوب تتكلم الهند-أوروبية عن شعائر أراضيها وآبائها كي تعتنق ديانة ثقافة أخرى، وعائلة لغوية أخرى. إنه لا يكتفي بأن يترجم هذا التحول، وإنما يجتثره. بما أن الجسر خط رابط مجشم، فهو يصهر المتخالفين في وحدة. فعلى البوسفور، يربط بين أوروبا وآسيا، لست أدري ما إذا كان يغير، ويترجم، ويحول أو يقلب رأساً على عقب، إلا أن مادته وجوهره، خشباً كان أم حجراً أم إسمنت، يتكيف مع شواطئ لا علاقة بينها. أرى الكلي سواء في الخط الذي يربط كلمتين، أم الجسر الذي



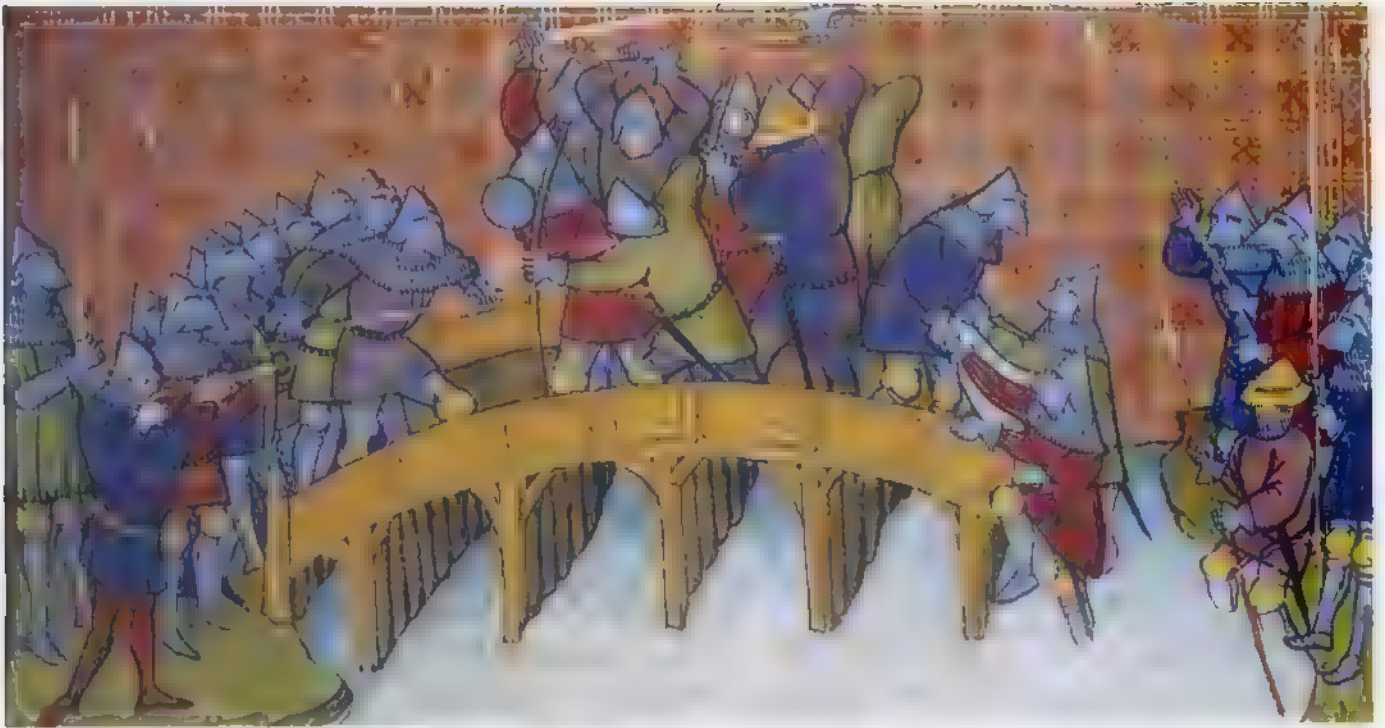
لا واحدة من قطع الدومينو  
هذه يمكنها أن تشكل لعبة  
أو تسلسلاً من غير المساعدة  
الدكية للجانبات البيض. يجد في  
أي مكان هذا النوع من القطع  
دات عشر قيم: الحلأ سلاله  
تونيتوتوت، الأوراق المائلة أو  
معادلاتها، معجم لعدة لعات،  
كل من هذه الأشياء يحسن  
المشئت على طريقته

نسيح ثوب، 1886

وبالصبط تعني معبزا. إنه جزء من مكان مألوف، يقود  
نحو مكان مجهول. إنه يربط المشكلة بحلها، يربط  
المعرفة بالجهل، البحث بالاكشاف.

وعلى العكس من ذلك، فإن الجسر يرمز بمعبره  
إلى منهج، بل إنه يجسده. إنها مفارقة البياض ذاتها،  
وهي البساطة العامة عيئها، ناعمة في حالة، وصلبة  
في أخرى. تظان مغا متناغمتين، في الجانبين مغا،  
بميتا ويسارا، هذا في حين أنهما تربطان فضاءين  
لا علاقة نجمعهما؛ إحداهما عن طريق الرموز  
والمعادلات، والأخرى بالأحجار والإسمت. إنهما  
يعملان مكافئين عامين للعلاقة كما يقول الرياضيون.

لكي نفهم الجسر والخط الرابط والمنهج، أظن  
أنه من الأفضل تأمل قطعة دومينو بيضاء. قطع  
لعبة الدومينو تشمل عادة عدداً على اليسار،  
وآخر على اليمين، بعض القطع تشمل بياضاً  
في جهة، ورقفاً في الأخرى، قطع أخرى تشمل  
بياضين أو بياضاً مزدوجاً. الخط الواصل يلعب  
دور هذه القطعة المزدوجة، التي يمكنها من جهة  
أن تعادل عدداً أو رقفاً، وليكن هو العدد 5 على  
سبيل المثال، ومن الجهة الأخرى يمكنها أن  
تعادل عدداً آخر، وليكن هو العدد 2 على سبيل  
المثال. قطعة البياض المزدوج تربط إذن بين 2 و5،  
يمكنها كذلك أن تربط بين 6 و3، أي رقم برقم آخر  
كيفما اتفق. هذا هو المكافي العام، وهذا هو الرمز  
العام الذي كنت أبحث عنه. إن هذه المعادلة تعمر  
الخط الواصل الناعم، والجسر الصلب، بحيث  
يسمح لنا بياضها بأن نتخيل منهجاً كلياً عافاً.  
والحال أن كلمة منهج تعني طريقاً يمر عبر،



جسر يشبه ذاك الذي يحارب فيه الذكور الأمازون، فعل يحدده القانون، تبتدى الحرب، وتنتهي بتوقيع اتفاقيات. وهكذا فهي تحد من العنف الجماعي الذي لا يتبع قواعد إذا ما تمت في فوضى الجميع ضد الجميع. فبدل أن يفجر العنف، فإن الحرب توجهه بحيث إن الجيش يساهم في السلم منتم يساهم في الحرب والمواجهة. نطرح الآن سؤالاً يخص الذكور والإناث: كيف يحد الحب من العنف الفردي؟ وعلى أي جسر؟

تحابوا ولا تتحاربوا. إلا أن الحرب تفترض علائق قانونية محددة، وتحسرات متماثلة. على المتحاربين أن يعلنوا الحرب، وأن يتواجهوا في نفس ساحة المعركة، كما على أسلحتهم أن تتشابه، رماح وأقواس متشابهة، دروع متشابهة، سبتعون بأنطاهم وسيزئون أمواتهم. الخلاصة أنه بدخولهما في هذا الصراع، الذي يمكن أن يدوم منه عام أو التاريخ كله، سيتواجه أرمانياك Armagnacs وبورغينيون Bourguignons على جسر..

فوق: أخبار سان دوني، القرن 14  
Chroniques de Saint-Denis, XIVe siècle  
جانبه لوحة لليوناردو دا فينشي، 1492

Handwritten text in a cursive script, likely a continuation from the previous page, located at the top left of the manuscript.

Handwritten text block in the upper left section of the page.

Handwritten text block in the middle left section of the page.

Handwritten text block in the lower middle left section of the page.

Handwritten text block in the bottom left section of the page.

Handwritten text block in the upper right section of the page, positioned above the anatomical drawing.



تنتهي حلبة سرطان  
البروستاتا بأن تنقسم. هذا  
هو الفصل النهائي لهذا  
الاردواح الحلاق، الذي لا  
يسطم ولا يتوقف، يربط  
التحلل الحلوي الحبية  
الأولى بمضاعفتها عن طريق  
جسر سيتوبلازمي. هل  
بذكرك هذا بميكيل أنج،  
وهو يجسر إصبع آدم مع  
إصبع الإله في لوحة الحلق؟



## تجسير 2

المنهج وخط الوصل، هذا اذن جسرا ناعمان. القنطرة  
أو الجسر، هذه روابط أو مناهج صلبة. تنبيه: لقد قمنا للتو  
بإنشاء معبر جديد، عندما أعبّر من المادي إلى الرمزي، ومن  
المجرد إلى العيني، فأنا أجسر الصلب والناعم.

سواء أتعلق الأمر بأحدهما أم بالآخر، فإنني أعثر  
على جسور في كل مكان؛ أمثلة على ذلك:  
المنهج المتبع في الترجمة يحشد صيغتين  
من القواعد النحوية وقاموسا مزدوج اللغة، إنه  
يجسر اللغات.

الطريقة التي

تتبعها

طفرات

الكائنات

الحية تمر عبر

التمازج

الجيني،

إنها تجسر

العضويات

الحية،

وقريبا

ستجسر الأنواع.

المنهج المتبع

لتحويل العناصر

يمر عبر حساب الأشعة

النووية، إنه يجسر الأحسام

العاطلة. وعلى الرغم من ذلك، فإننا عندما

نحتر بالتتالي اللغات، والأحياء والعناصر، فإننا نحتر

عبر ذلك، إمبراطورية العلامات الناعمة مع العوالم البيولوجية  
والفيزيائية الصلبة. فكما لو كانت هناك جسور صغيرة، محلية، كل في  
مرتبته، إلى جانب مينا-حسور، عابرة، تؤدي من مرتبة إلى أخرى. وهي  
تتداخل فيما بينها، كما في مسالك تقاطعات الطرق السيارة.

أولى المهام: بناء الجسور الصلبة، ثانيها: إعمال الفكر في  
الجسور الناعمة. رمي حسور بين الأولى والثانية، تلك هي المهمة الأخيرة.  
حينئذ سيغدو التجسير، بصفة عامة، فعالية من الاتساع بحيث  
تستغرق المشروع البشري، من حيث إن جسمنا نفسه يجسر  
الجسد بالروح. الإنسان ابن الجسور Homo  
pontifex.

ورجل الدين pontife يجسر ponte البشري بالإلهي، الأرض بالسماء، المحايث بالمتعالي.

حوّلنا الذئاب إلى كلاب، والأروية إلى أغنام،  
والنباتات الخرقاء إلى قمح. نغير القنب والكتان إلى  
ملءات وملابس، والبعط إلى طاقة، والصلب إلى  
سفن، والشكوى إلى قصيدة، والرغبة إلى ألحان،  
والأشياء إلى أعداد، والطبيعة إلى ثقافة، والنظرية  
إلى آلات، والمادة إلى مجردات. بل يحصل أن نجعل  
من غضب الجمهور رسائل سلمية. نجسّر كل ما  
يقع تحت أيدينا.

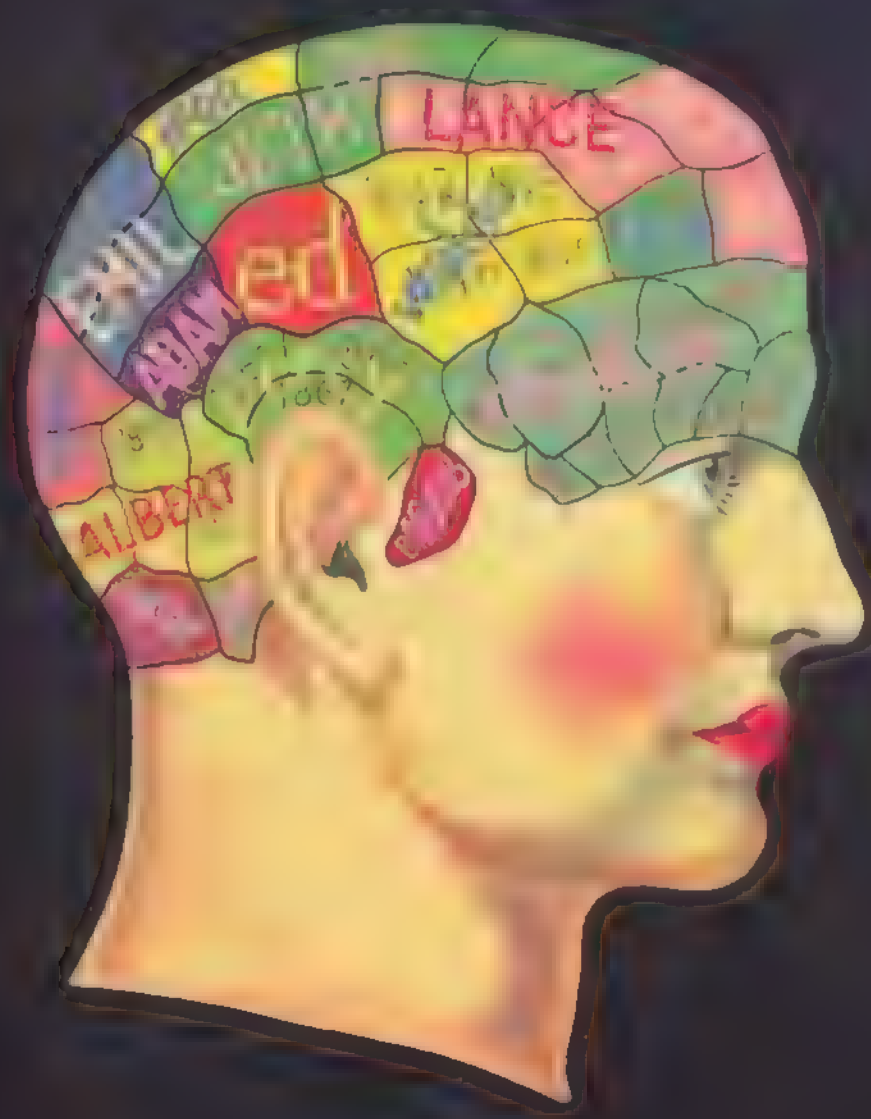
ولكن الطبيعة، خارجنا ومن دوننا،  
تجسّر القمم البيضاء للجبال بحصرة البحر الشاحبة بفعل  
المياه العكرة المضطربة للأبهار،  
وبفعل الضغط المنخفض والمرتفع،  
وفعل التيارات والرياح،  
بل وحتى بالشواطئ القارية بفعل الابتسامة الإلهية لمياه هذا  
البحر الذي كان الإعريق يسموه جسزا.  
لست إلا الجسور، ولا أصنع، ولا أعيش، ولا أرى إلا هي.

لكن الحياة فينا كان قد سبق أن جسّرت نصفنا كرتنا  
الدماغية،  
اليمين واليسار،  
ومركزنا العصبيين،  
الرأس الواضح والبطن الغامض،  
حتى نحز هذه الأقواس، والأعمدة،  
وهذه الأسلاك والقناطر التي تولدت عن مخططاتنا الدقيقة  
وحماسنا.  
ولكن الحياة، خارجنا وفيها، ترغمنا على سعادة تجسير  
جنسنا كي تستمر.

عندما أرفع عيني ألاحظ، عبر النافذة،  
شجر الصفصاف يتمايل بفعل النسيم العليل  
كي يجسّر البور السماوي بالأملاح المعدنية المدفونة تحت الأرض.  
إن التفكير في التجسير يتطلب تأمل العالم في جزئياته  
وتفاصيله،  
كما يتطلب بسط وظائف الكون جميعها جملة.  
جميع الأشياء تعبر الجسر Panta pontes.

كيف يعمل رأسك كي يحب إميل وأدم في الوقت  
نفسه؟

## CHART 5



He loved boys, artists and aristocrats.

Civitas vocatur babilon significat mactiam



In historia scolastica sup machab

لطيف ومكور، يقع في  
حديقة زرع أشجارا ووردا  
يسقيها نهر بحرقة حمر  
صغير أبيها البحر، يا ملداني  
الأنثوية الحيوية اعدروا حلمي  
وحيالاتي فُتح جسر ليفيس،  
الأنثى تنادي...

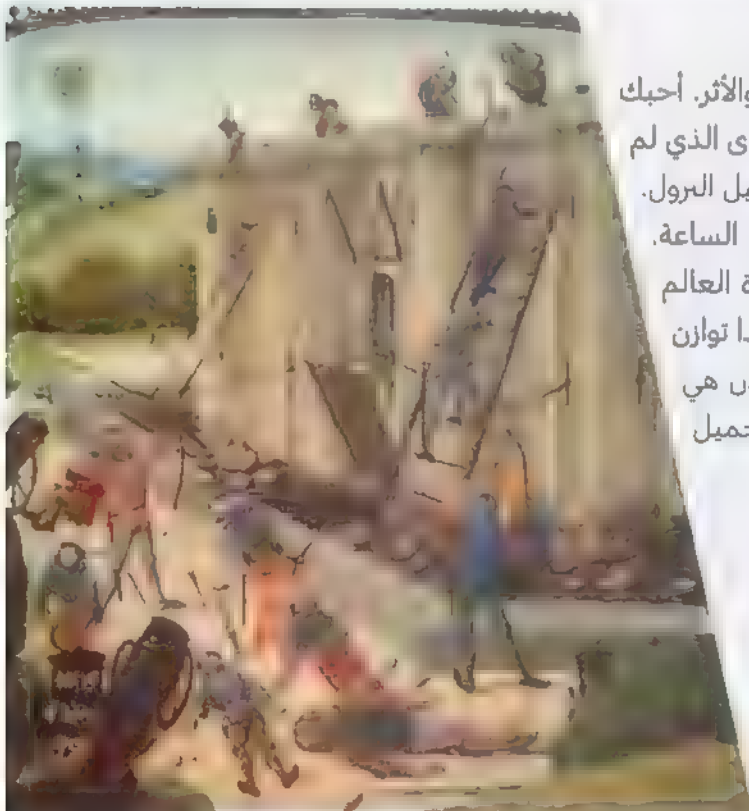
Le Miroir de l'humaine  
salvation, XVe siècle

### تجسير 3

كلا. لا تعمل جميع الجسور كقطع دومينو بيضاء. فعضها، شبة الموصل، يمنع العودة. أنت يا من تعبر هذا الجسر، اطرح عليك أي أمل. لكن، لتترك المكان من أجل الرمان: إنك لن تستعيد صبرك. بعد الرواح، لا أحد يعود عازنا: فهو إما أرمل أو أرملة، أو على الأقل، مطلق أو مطلقة، ولن يعود قط ولذا أم ننثا. كان الميت، سواء أكان إغريقيا أم لاتينيا، يعبر على متن السفينة نهر لبيتي Léthé، يدعى بالفرنسية نهر النسيان Oubli، لا أحد كان يذكره فيما بعد. العذرية لا تستعاد، والسحل العدلي المدس لا يمحى. بعد ما يدعى شفاء من المرض، فإن الصحة المستعادة لا تعيد بالضبط العافية التي كان يتمتع بها الكائن الحي من قبل. آدم وحواء لم يعودا إلى الفردوس. من يستطيع أن يصلح ما أفسدته سنوات من الإهانات التي لن ينفع فيها شيء؟ ما لا نستطيع استعادته وإصلاحه يفوق كثرة ما يمكن أن نستعيده ونصلحه. هناك مما لا يمكن التراجع لإصلاحه أكثر من العلاجات القابلة للتراجع. لم يسبق لأحد أن رأى حركة حادة ولا عودا أبديا. إن سيل القصور الحراري يحرق العالم والحياة.. كم يحصي أولئك من الجسور البيضاء التي تكون العودة عبرها ممكنة؟ يمكننا أن نرى نظير هذه الجسور في كل مكان، كما يمكننا ألا نراها في أي مكان.

أيها الموت لتذكرني على جسر  
ليفس المرفع انصارم، والعبيد،  
والحصار، الذي يدفع عنه غم  
البولنورسيك، والمخط بالسهم  
الطائرة بهز، المسح بثلاثه سلالم،  
الان الصورة احلته من اي مصر  
طبيعي، لملوءه احلافا مسلحين،  
الغطاء بالحنث

(The Great Wall, 1386)

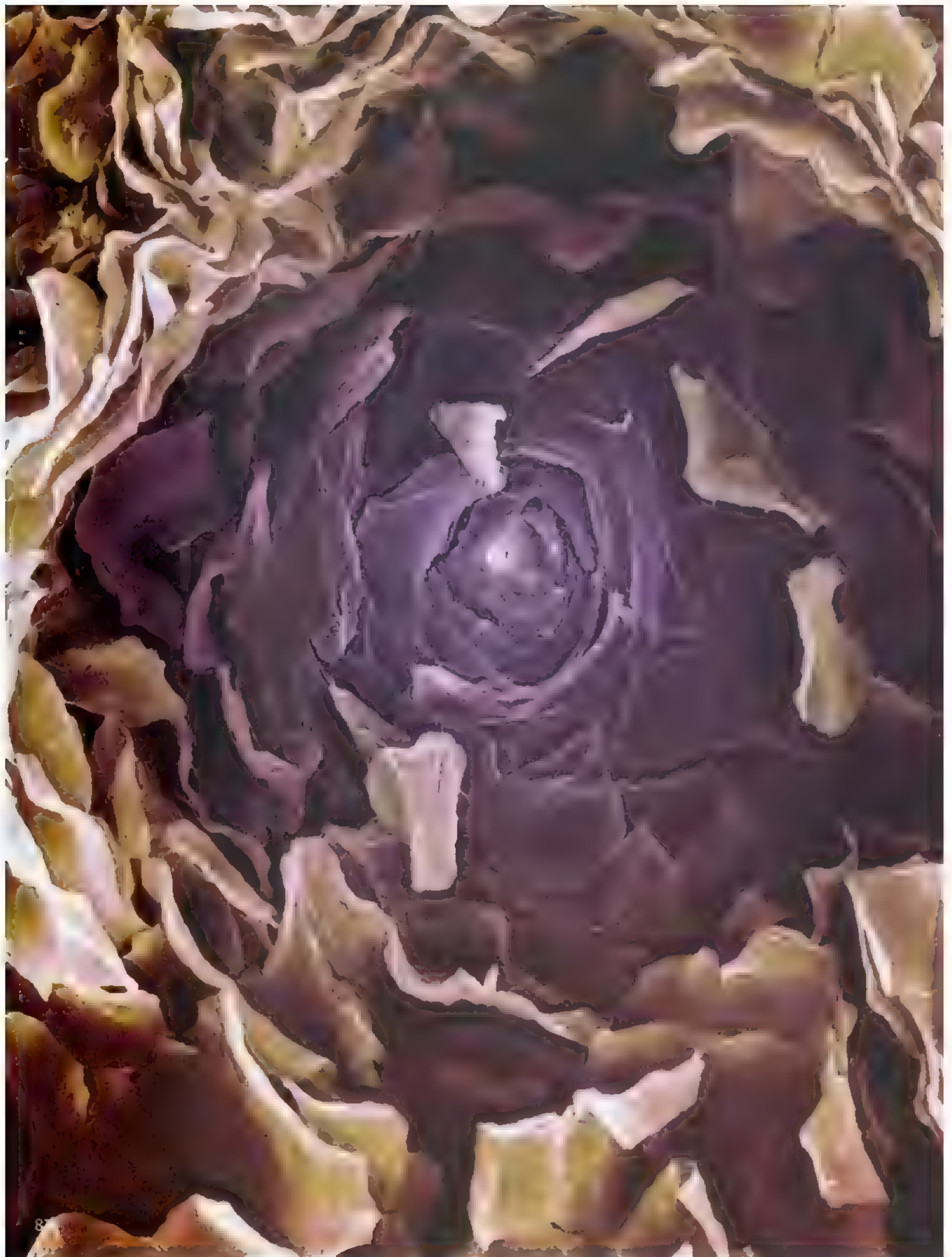


معذرة، تبقى هناك المعذرة وطلب الغفران، كما يبقى العمل والأثر. أحبك بما فيه الكفاية لنسيان كل الأذى الذي سببته لي، رجاء، انش الأذى الذي لم أكن لأرغب أن أسببه. لتتجث السقوط في الانتقام، وليعاكس سيل البرول. يعمل الحب والكذب على جعل الكرة والزمان يدوران عكس عقارب الساعة. حينئذ يعود السيل إلى منبعه. يعمل المؤلف على الزيادة من براءة العالم وسداجته، كما يعمل كتاب عظيم، وموسيقى جميلة على أن يعيدا توازن القوى المعقودة، وتجديد شباب الرمز. وحدها الأشياء الحميلة إذن هي التي تصنع الجسور القابلة للعودة. وإلا، فعليكم أن تعترفوا بحميل الطريق المزدوجة للجسور.

مرة أخرى، كلا. ليس هناك فحسب الأجسام الموصلة، والشبه موصلة، والجسور مزدوجة الطرق، والجسور وحيدة الاتجاه التي تحمل إشارة منع المرور، بل هناك أيضًا الجسور-المرشحة التي تكشف عن أنيابها التي تخترق رؤوسها لحم المرشحين للمرور وتمزقه. لا يوجد فحسب الخير والشر، والقابل للعودة وغير القابل، بياض التكافؤ وسواد المنع، هناك كذلك الثوب الرمادي والخرق الممزقة. ليس هناك فحسب الخيرون والمرعبون، منع المرور والسماح به، هناك أيضًا عمليات القسمة، والكسور والخسائر. حيثما عبرنا الجسور، نخلف كسورًا في كثير من الأحيان.

حق، وإن كنت قد فقدت في بعض الأحيان ذكرى ذلك، فإن جسمي ما زال يذكر أنه اجتاز كثيرًا من العتبات، والقنوات، والأنفاق، والاختبارات، والامتحانات، والجمارك، والسدود... كما يذكر أنه أدى مكوشًا جزءًا من جلده وعظامه وأثار دم، وأسفي، وندم، وأسمال قلب ورفات أرواح. إذا عبرنا هذه الجسور، حتى، وإن عدنا على الطريق نفسها، فإننا لا نعود من المغامرة دومًا بكامل أجسادنا وأرواحنا، فلا بد أن تنهش لحومنا الأسلاك الشائكة. عبر كل هذه المرشحات الوحشية، زرعث الفضاء بأعضاء متناثرة. بل إن في استطاعتي أن أقدر أوران الجسم والانفعالات التي تركتها هنا أو هناك، بين فينة وأخرى، لهذا الهلاك. ودعت الطفولة نصف ممزق، والمراهقة بالزيع المتبقي متي، وفي سني المتقدمة هذه، أجدني سعيدًا، وأنا ما أزال أحتفظ ببعض الفتات. أتعرف، في بعض الأحيان، أماكن تشير لي فيها بحيرة في تجويف صدري إلى أنها تمتلئ دموغًا، لأن الحجم الذي ينقصها بعد أن استؤصل متي، سيظل هناك في الموضع الذي غادرته بثقب، هل سيفيد هذا العضو المتبرغ به أحدًا؟ أشك في ذلك وأتمناه. إن هذه السلسلة من الجسور-المرشحة تمزق الحياة إلى حد أننا سئموت إقامتنا قد قُضي علينا تمامًا، أو لأننا لم نعد نملك ما نهبه للآخرين.

في الجلد، تنبج المسام التدفقات مثلما يعمل ميناء أو جسر. منذ عهود، لم يكن لدينا أي تقدير لتفاصيل الأشياء والأعداد التي بصف انفجارها الكبير الكائن الحي. وهكذا، فالقشرة نرصع ثقوب هذه المسام يمكنها أن تؤول إلى مثل هذه الصورة الورقية الكثيفة، التي يمكن أن تطوى بكيفيات متعددة. قديمًا تخيلنا الجسم آلة. لنصحح هذا الحدس: إنه بالأحرى آلة آلات من الآلات... هل هناك حد لهذا التكرار؟



معظم الجسور التي عبرتها في طفولتي كانت تحتفظ بآثار الرسوم القديمة. إما بقايا عظيمة أو علامات بانسة: كوخٌ متهالكٌ على الممر الهش، بناءً شبه إغريقي مرود بثلاثة أعمدة في مدخل الحسر الحجري. لا نعطي قيمة لهذه الاستعمالات التي تعود إلى حقبة ماضية حيث كانت السلطات تُقطع المكان تقطيعاً كي تحصل على صرائب التنقل. أما تسهيلاتنا الحديثة، فكانت تتطلب أن تكون أيدينا من غير قيود، وأن تكون أذرعا محررة حيث نمر عبر مكان سلس من غير عقبات، فيمشي ونهرول أو نطير. والحال أن معظم الجسور التي تحترقها الطرق السيارة اليوم، بين جانبي وادي، أو خليج أو ذراع بحر، تتطلب أداء رسوم العبور، وهذا هو الاسم الجديد لما كان يسمى تعشيراً. ها قد عادت رسوم الدخول؟

لنتعرج لإعادة قراءة هذه الكلمة القديمة octroi التي يعتقد أننا نسيناها: إن المعنى الحرفي للفعل «octorise» يعني بسمح autorise بالمرور. كيف ذلك؟ إن الفعل اللاتيني augeo، الذي يعني زاد، ولّد كثيراً من الاشتقاقات، حيث نجد بينها السماح بـ autorisation، ورسوم الضريبة octroi. وها نحن مجدداً أمام المؤلف auteur. يتعذر

## رسوم العبور

علينا الإيمان بذلك. ولكن إذا كانت كلمة octroi قد استعاضت عن الـ au بحرف o، فإنها قد احتفظت بالحرف c الذي فقدته كلمات المؤلف auteur وكلمة السماح بـ autorisation وبقية مشتقاتها في اللغة الفرنسية، هذا في الوقت الذي احتفظت به اللغة الإنجليزية auction. عندما نعبر جسر اللغات، فإن الترجمة قد تؤدي، في بعض الأحيان، رسوم العبور، متخليةً عن حرف من الحروف. أتمنى أن تصدقوا ذلك! ها هي من جديد مشتقات الكلمة اللاتينية augeo: ما من كلمة إلا وترفع الشعر، ففي auction المراد الإنجليزي، والكلمة الفرنسية مؤلف auteur تريد القارئ قيمة، أو على الأقل أتمنى ذلك، والسلطة autorité تضمن وتخوّل... لكن ماذا تفعل كلمة octro، يا للمعاجاة، إنها تُنفص ولا تريد، وهي تقلل من حجم حافظة نقودك! صحيح أنها تسمح بالمرور، لكنها لا تفعل ذلك إلا مقابل الأداء. وصحيح كذلك أن هذا الأداء يضاعف من ثروة العتار، ولكن من يحمل اسم العتار وقوبه، والسلطة التي تسمح لهذا المفتري بأن يأخذ الصريبة التي تحمل اسمه عن حق، والتي يعرضها سواء على شخصي،



في الفترة نفسها، بدلاً من دفع الرسوم نفسها عند جسر إسطنبول على مضيق البوسفور، قام كيرابان Kéraban، الذي يسميه حول فير es Verne، العيد le Têtu، بحولة حول البحر الأسود، ما كان القدماء يسمونه جسر أوكسين Pont-Euxin، ثم عاد على جبل توارن. احتراماني لهذا العيد. آجان، حوالي 1910.

أم على السلع التي أحمل، على الأموال التي ربحتها، وبعض الحركات التي قمت بها، وعلى الأماكن التي أتقل فيها، والعمل الذي أبذله، وعلى الميراث الذي أخلفه لأبنائي؟ من يسهر على إدارة الجمارك، ومن يعطي الإذن؟ من يعترض طريقي أو يقطع كلامي؟ بأي حق هناك رسوم العبور؟

ومع ذلك، فأنا أريد أن أعبر بخزية؛ أريد أن أمارس حياتي الجنسية من غير وسائل، وأن أحاور من غير مترجم، وأضع الملح في قدرتي من غير أداة، أن أعمل من غير واسطة، ومن دون أن تضايقي الإدارة أو المافيا، تلكما الأختان التوأمان، هل في استطاعتي ذلك حقاً، وأنا غارق حثاً في شبكة من العلاقات التي لا تحصى؟ كلا، علي أن أستسلم لهذا القدر: بما أنني متشرد، فأنا لا أتوجه دوماً بالكلام إلى من أفهم لغته أو من يتكلم لغتي. يحصل لي أن أشتري بعملة أخرى. أنا لا أعرف كيفية إصلاح دراجتي النارية ولا بتر خيط صوف سترتي. علي دوماً أن أبادل، وبالتالي أن أمرّ عبر مكتب الصرف. ها قد عاد الوسيط، النقال

الذي سرعان ما يغدو مزعجاً لأنه يمكن أن يعكر صفو العلاقة، يعززها بالتأكيد، ولكن كي يستفيد منها ويستغلها. ينبغي إذن بناء جسر ووضع رسوم العبور عليه. يُمكننا ناني الأقواس، ومسهل الأمور، هيرميس Hermès وحده وعدد من الملائكة، من كثير من الممرات، إلا أنهم يرغموننا على أداء عبورها، مقابل أثمان باهظة في بعض الأحيان. حينئذ، فهم يتحولون إلى شياطين يلعبون دوراً مزدوجاً، فيمنعون الحركة أكثر مما ييسرونها، ويضعون من العقبات أكثر مما يقدمون من المساعدات.

هل تبحثون عن مساعدة؟ ها هي ذي، ولكن ينبغي دفع الرسوم. أنت تسدي إلى معروفًا، بالتأكيد، لأن بإمكانني أن أخترق الماء، لكن، في المقابل، عليّ أنا أيضًا أن أزيد من ثرائك. هذه المعونة ذات المدخل المزدوج يمكنها أن تحوّل المستفيد الوحيد إلى كفيل أو إلى مساعد. حينئذ سيستغل الفرصة شريكان اثنان. دفع الرسوم إذن: هذا يصدق على الجسور، الالتحام: يصدق على الكائنات الحية، التعاقد: يصدق على الاتفاقيات بين الأفراد والجماعات. من الأفضل أن تكون هناك هذه التعاقدات بدل اللامساواة.

يرمر الجسر إلى العلاقة، وهو يحققها  
ويعلي منها في الوقت ذاته، يمثلها



خشبا، حديدًا، حجزًا، أو فكرةً ومعنى: إنه يثبت شموها. فإذا سكن كل علاقة عنصر نشاز، فحينئذ ستجدون عند كل حسر مركز أداء الرسوم، وفي كل علاقة تعاقدًا. لا علائق جيدة إلا في ظل تعاقد. لن تمرؤا من غير أداء: فلس واحد، كلمة، دمة، قطعة لحم. إن للجسر حقوقًا.

لكني ما زلت أتمرد، لفرط ما يبدو لي هذا الحسر الذي يعوق عبوزه أداء المكس متناقضًا! إذا كنت أنا المؤلف أنمي معرفتك، فلماذا أعطي ليلسي حق الحد منك، وإضعافك؟ سترد علي قائلا: عند شرائي كتابك، دفعت ثمن حقوق المؤلف، الحقوق المعززة كما تسميها. أوه، إتك لعل حق! تلك هي رسوم المرور عبري. سامحي: فأنا تعبت كثيرًا في كتابته والتفكير فيه، وتوثيقه، وتأليفه، لأعطيك إياه، بحيث أظن أن ذلك المكس من حقّي...

ستقول لي إنني لا أمانع أن أهديك حي، وتضيف: إلا أنك ستدفع ثمنه، أنا أقبل أن أحبك، حتى شريطة ثمن باهظ. كم مرة سمعتك تعني: لكنني أحبك، فانتبه لنفسك؟ إن العمل الذي يبني كي يتم العبور عبره، يحتوي دومًا على حاجز دون المرور. أنا أعطيك وأخذ منك. لا تكف عن التبادل. إن العدالة ذات الطريق المزدوجة تتطلب أن ترد لي ما أعطيتك إياه. أنت تفتح لي الممر، لكن أنا أدفع لك الرسوم مقابل ذلك.

كيف نغلق مكائن، وليكن مدينة على سبيل المثال؟ بأن نعلن أن عرله مقدس أو محرم، وسط الفضاء غير المقدس، أن نسيجه بجدار عال دفاعي مليء بالأبواب. القرار الأول يرجع لجوبيتر Jupiter، إله القساوسة والديانات، الثاني يعود لمارس Mars إله الحرب. غرنا ذلك في باريس سنة 1860: غاب الجرس من الأفق، ابتهجت الجماعة أمام رسوم حاجر فابسين Vincennes. انظروا إلى السيد الحديد: كيريبوس Quirinus، إله المنتجين والتجار، والصانع، باحتصار إله الاقتصاد... إعدائاته تطوق الآن أطراف مدننا بالقبح. وقوته تخنق أماكن عيشنا أكثر مما فعلته التابوهات والجدران.

ها هي سيقان الريمافيرا Primavera وأقدامها، تحطو الزهور. رسمها ساندرو بوتشيلي Sandro Bottice سنة 1477، وبعبارة أخرى إنها أعمدة جسر طالما أحبت سطحه الربيعي!

فيما سبق كنا نقصي شهر مايو احتفاءً بمريم العذراء، كما لو أن الرطوبة العذبة للمناخ، على مقربة فصل الربيع، تتيح للكنيسة فرصة الاحتفاء بعذراء كان الموسم قد أبعد عنها رغباتنا. ما زلت أحتفظ بذكرى الزهور الماثورة كما لو كانت تلقى في اتجاه معاكس، لتنتثر رائحة العفة.

غَير رجالٍ دينٍ جدد كل هذا. كان يكفي أن يجيء عيد العمال، وعيد النصر، وخميس الصعود، والقديس إميل أو القديسة سولانج، بشكل مناسب كي يخلق جسوزا بين أيام السبت وأيام أخرى سعيدة كاثنين البانتكوت -كنا نشعر في بعض الأحيان بقشعريرة سياسية ونحن نناقش بحدة ما إذا كنا، وأطفالنا، سنأخذ يوم راحة هذا الاثنين أم لا، سواء مؤدى عنه أم لا، وهو نقاش كان يحتدم، ويخلق انفعالات شبيهة بتلك التي كانت تلهب النضال الطبقي، حينئذ كان بلدي بأكمله لا يكف عن عبور الجسور.

ينبغي أن نعتقد أن العمل يننّ تحت أقدامنا، في أسفل الوادي، مثل سيلٍ يحدث انجرافه ضجيجًا مخيفًا... هل أسمع من أعلى، وأصعي من بعيد، للمرافعة الشعائرية القديمة ضد غضب العشق الربيعي؟

إن جسور شهر مايو العاطلة تحمي الفرنسيين منه.

مثلما كان أبناء بلدي سنة 1939، وهم يفرون، أول من أدرك بشاعة الحرب أكلة اللحوم، فهل ينبغي أن نعتقد أنهم يكتشفون اليوم، والأوائل من جديد، مساوئ العمل الذي أصبح يدمر أشياء العالم؟

## سعيد مثل كاثوليكي في فرنسا





يستند الجسر على أكوام، وحسر الجموع على أعمدة. بين هذين لشهدين للكرة المستطيلة (الرعى) بين فريقين راسين وأحسن Racing- 1953 Agen عشب أخضر، وصف من الأشجار، منظر شبه ريفي، رغم أنه في العاصمة. الثاني بين فريقين فرنسا وإيطاليا، 2004، إعلانات، وتقنية، وكمال الأجسام... قطيعة، من غير حسر، سميتها في كتاب آخر سبيان الإنسان Hominescence

## الصلصة

في بلدتي التي لم تعد مُمتسحة،  
أو، على الأصح التي لم تكن قط موضع تنصير،  
تلعب الكرة المستطيلة دور الديانة.  
في شعائر تُقام كل نصف شهر،  
يجتمع حشد وثن في ضرب من المعابد التي تسمى ميادين اللعب،  
كي يُقدّس فيها خمسة عشر إلهاً صنمياً،  
وثمانية ثيران، وسعة غرلان،  
يضحون بأجسادهم دفاعاً عن سمعة المدينة.  
ضد عدد مماثل من الطباء الصخمة والحواميس،  
يستعملون كرة مستطيلة يدبرونها بأصابعهم ويضربونها بأقدامهم،  
في الوقت الذي تقدّس فيه قبائل أخرى غريبة،  
أنطالاً غريبين لا يلعبون إلا بالأطراف السفلية، بكرة مستديرة.

شعرت بالعبطة، صد وقت عبر بعيد، وأنا أسمع أصدقائي الأمريكيين رمى البطريق الكرة العائدة بعيدًا عن متناول خصومه  
 يطلقون على هذه الرياضة الأحيرة كلمة soccer،  
 هذا في حين أننا كنا نسميها أيام شبابي في أجان la sauce،  
 مترجمين على هذا النحو في لهجتنا المحلية اتحاد كرة القدم. هذه هي أسماء الاستراتيجيات التي ينجح في اتباعها أكثر اللاعبين مروية،  
 فيما وراء السحار، كانت اللغات، وقد خسرنا على هذا النحو،  
 قد توصلنا إلى الترجمة نفسها.  
 لتخطي حاجز الخصم، يحاول الثور أن يداهمه،  
 في حين يمارس الغرال الفس الرهيف للركلة الموالية هنا،  
 عندما ضربت الكرة المستطيلة ضربة حذاء، طارت فوق رأس الخصم،  
 فسعى المدافع حاهذا أن يستعيدها، عن طريق يديه،  
 حنف طهره. حيثذ، ومن غير أن تكون الأمور في صالحه،  
 من غير أن نولي اهتماما بالخدوعين.  
 بما أنني أعشق الجسور، تأخذي الشفقة على الأنهار.  
 أصع نفسي في معسكر الدوائر القصيرة.



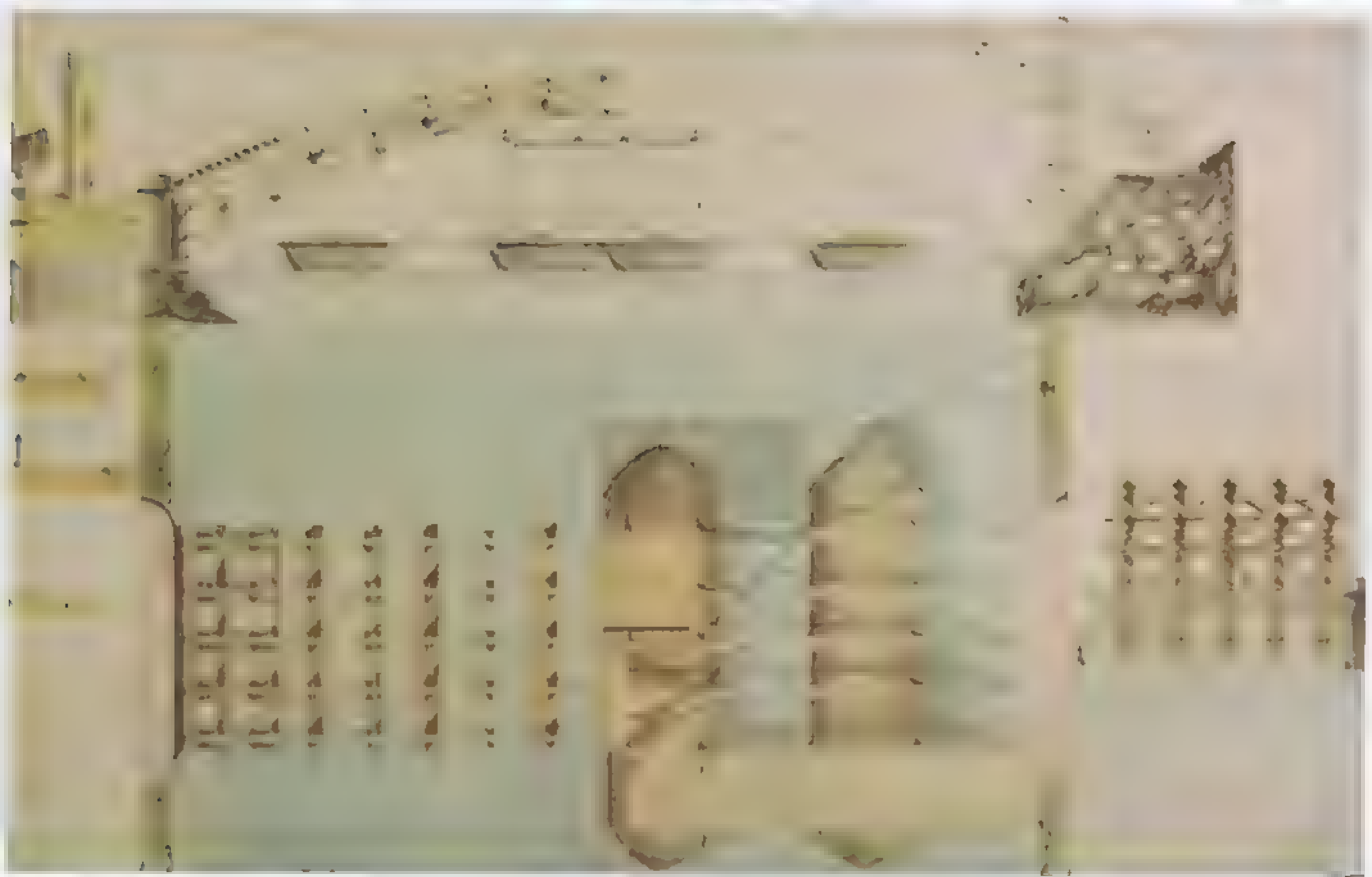
# مهندسو الجسور

هنا، سنة 1886، في سان أندري دي كوبيزاك Saint-André-de-Cubzac، لاحتياز الدوردوني Dordogne، يرتفع هيكلكومة أرى في ذلك انتقالاً بين المحط والحسر. بل انتقالاً أو تحسيزاً بين المشروع وإنجره. السلسل: فرار، تمويل، حساب، الرسومات، الخطاطة، التجريب، حفر الأساس، القوالب، التنفيذ، إتمام... إطلاق الوظائف، الصيانة... هذا السلسل يجعل من كل مهندس يعمل لإنجاز أشغال، ويسح هذه السلسلة بانها لتحسير pontage أصيل. أرفعه إلى مستوى رجل دين pontife.

ربيت منذ طفولتي على الإعجاب بمهندسي الجسور. كنا نعمل في الأوراش لبناس العمل، أما هم فكانوا يتسيدون في مكاتبتهم خلف رباطات العبق. هم كانوا يرسمون ويوقعون ويحططون، أما نحن فكاننا نكشر ونحفر؛ كانوا يعرفون، أما نحن فكاننا نجهل. لكن تحديداً، بما أنهم كانوا يعذون لنا الرمال والحصى أو يرفضون ذلك، فإننا كنا تحت رحمة قراراتهم من أجل لقمة العيش. لذا فإننا كنا نمتدحهم ونباركهم ونندي إعجاباً بهم، ونستعطفهم، وندعوهم إلى مشاركتنا حفلات العشاء. علمي والذي أعارض الأشخاص الذين يمكنهم أن يتحولوا في أوقات فراغهم إلى آلهة أو صياء، أو شياطين خطيرين. هكذا تعلمت في وقت مبكر أن هناك أناشاً في وضعية من لا يخطئ أبداً. قابلت كثيراً من هؤلاء خلال حياتي فيما بعد، بين الأطباء، وفي الجامعة، في الأحزاب السياسية، في عشرات الأماكن المختلفة حيث تعلمت، على العكس من ذلك، أن أشفق عليهم. أزعم أنني أخطئ بانتظام، وهكذا لم أكف عن التعلم.

لم تكن أيدنا الخشنة لتقارن بأيديهم الناعمة. فيما بعد، حين انتقلت من تفتيت الأحجار إلى المدرسة العليا، كان أحد أبناء الأعيان، وكان ماركسيًا لامغا أصبح فيما بعد مشهورًا ومحافظًا، كان يلقي عرضاً في الفصل الذي أدرس فيه حول الفزق بين المثقف والعامل اليدوي، كانت نظريته مدعمة بكثير من النماذج التاريخية، ولم تتوان عن تسليط أضوائها على المسألة المطروحة، فاستوقفتني لحظة، مفاجئاً الحضور الذي كان يسانده، منيها إلى أننا نلاحظ هذه المسافة عند صهرج غسل الأيدي، حيث لا يغسل الأول يده إلا بعد أن يقصي حاجته، في حين أن الثاني يعطي الأسبقية لغسل اليدين بالماء والصابون، كي لا يوسخ جسده بالوحل. تعلمت هذا صغيراً جداً من خلال التجربة.





لا أمزح. إن الجهل مكلف. بسبب نقص التكوين، لا تكف الكوارث تنزل علينا. لم نكن نعرف شيئاً عن جيولوجيا الحصى التي نستخدمها، ولا عن مقاومة المواد التي نستعملها، ولا كيف تعمل أجهزة قياس الأبعاد وشدة التيارات الكهربائية. لم نكن نعرف إلا الأمتار المكعبة: كم متراً من الحفر يلزم لذلك، لهذا يلزم هذا العدد من الأمتار. وكذا فيما يخص علو الرافعات: وفق هذا العدد من الأمتار المكعبة للمياه، يتم قطع الجسور. لم نكن نعرف قراءة فواتير المزودين بالسلع، ولا حسابات البنوك، ولا بيانات الضرائب، ولا طلاس الإدارات، ها هنا أيضاً واحدة أخرى من الأمور التي تنال إعجابي، ها أيضاً فئة من البشر التي لا تحيد عن الصواب... من هذا الفقر المعرفي، وهذه الحوادث المتواترة، تشكّل عندي ميل حاسم إلى المحردات. فأنا لا أكرهها لشدة ما خبرث العيني والتجارب الملموسة، كلا، على العكس من ذلك، إنني أفذرها أكبر تقدير، فيما أننا كنا عارقين حتى العنق في هذا الواقع الملتصق والملطخ بالزفت الذي لم نكن نعرف كيف ندير أموره عندما تتوقف سلاسل النقل، فقد كنا في أمس الحاجة إلى نداء استغاثة من طرف أمكنة علاج تلك المشاكل اليومية، وإلى إنقاذ ومرجع، نعم، كنا في حاجة إلى عالم آخر. كلما توقفنا، طلبنا النجدة! من دون تجريد، نظل صفا عمياً عاجزين أمام الأشياء المعطلة. أولئك الذين يحتقرون المجرد، لم يشعروا قط أنهم في حاجة إليه.

الساھرون على شؤون التربية عندنا ليسوا على حق. فنحن لا ننقل على الدوام من الأشياء إلى الأشكال، إننا لا نبلغها شريطة أن نمر أولاً عبر التجربة، كما لو كان الأمر يسير في طريق متصل، كلا، إن التجربة تدفعنا إلى الإحساس بالعوز، إنها تزيد من الألم المترتب عن القطيعة. تفصح كلمة تجربة، في عمقها، عن

خطر محقق. النجدة! إن الأفراد، والحالات، والجماعات التي لا تغامر البتة لا تراكم أي تجربة. بفعل الخطر، ينقطع طريق في لحظة بعينها، وينفتح جرخ ويتسع غوره. حينئذ تظهر الحاجة. لم تكن طفولتي في خصائص للخبز والفاكهة فحسب، وإنما عرفت أساساً الفحط والندرة وصحراء المعرفة. توقعات وحوادث كانت تستغيث بالمجرد، احتماء من حياة شديدة الصعوبة. فيما بعد، التهمت الآداب والعلوم، بكيفية نهمة، بمئات الأمتار المكعبة، مثل جائع ظمآن، مفتوح الفم محمق العينين. هل سأتمكن يوماً من ملء هذه الثغرة؟ ما يعوزنا في صغرنا، نرغب فيه مدى الحياة، علماً أكان أم حباً. أرتعش بكليتي من جراء جنون المعرفة، مزيداً، مزيداً، وأيضاً مزيداً. إننا لم نر فتاتاً واحداً، ولم نعرفه، ولم نهضمه منذ عشرة، عشرين، مئة جيل عاش في الفحط. تداركت تأخري العميق بأن التهمت، من غير تكلف، مائدة المعرفة الشاسعة.

إذا جرائم هاتين الصورتين، أنصتوا بكيفية أخرى للكلمات الثلاث نفسها التي تستعملونها ها هي. سواء أكان حقيقياً أو ثقبلاً، فإن القارب يحتوي على جسر أو عدة جسور عبر نهر أو دراع بحر، فإن هذه الفوارب يمكنها أن تشكل جسراً من القوارب. هنا إذا ارتبطت منى منى أو أربعة، فإن بإمكانها أن تنبى حزافاً مركزياً لقوس جسر (يسمى هنا ربع كرة) ها هو إذن جسر في ثلاثة أشخاص، كما الحال في الثلاثية المسيحية. مؤلفا المخطط، أعلى. باربي، أسفل حيرار دي كوديبورع.

Girard de Caudenberg, XIXe siècle



وقعها شارل نورمان دو لامولاتيير. Charles Normand de La Mulatière هذا الجسر الحديدي يرجع إلى سنة 1791. لم يكن برج إيفل قد ولد بعد.

إن الهوة التي تفصل قشرة الجلد المتسخة عن الأيدي الناعمة، والتي نلحظ، في المكتب، جوانبها المنفصلة في سلوكيات يدوية للغسل، تلك الفجوة التي لا سبيل إلى سدها، وحدها القفزة هي التي يمكنها تجسيرها، قفزة هائلة، سلك مذهل، قنطرة عنكبوتية. فجأة، ودون سابق إعداد، كرحمة نازلة، كموقف خاص بالعقل المهذب، ولكن أيضا كتجل ملانكي، يمثل التجريد، كأمر غريب وحيد، مبهر، مريح، نعم إنه ملاذ النعمة، إنه أكثر عينية من الممارسة ذاتها، إنه انتصار قادر على إصلاح الأعطاب، وعلى أن يعيد تشغيل سلاسل النقل، مدشنا

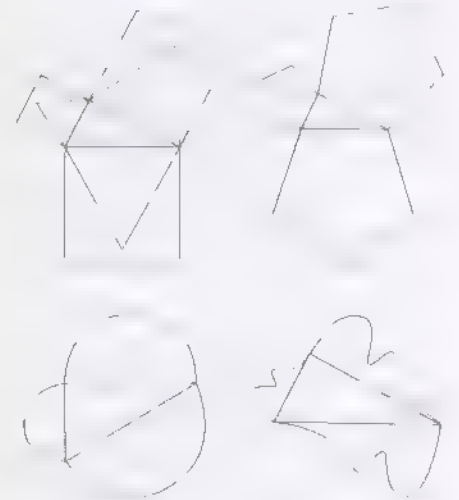
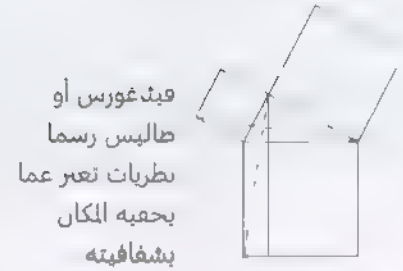


خطوة حكيمة لا يضاهيها أي شيء: إنه الجسر العجيب لحياتي بكاملها،  
الجسر اللذيذ لمنعقي، الجسر السحري الذي يربط منذ قرون وقرون،  
وعلى امتداد الكون، الحصى بالأرقام.  
لهذا السبب، ورغم تقدم العمر،  
لا زلت أحترم مهندسي هذه الجسور.

# جسر الصعوبات



لم أعبّر جسر الصعوبات إلا في وقت متأخر جدًا. ليعرض مربعين صغيرين، مختلفين، ممدودين على شكل نجمة على ضلعين، منضمين إلى مربع كبير، موضوع على الثالث كي تشكّل المربعات الثلاثة بوغا من الطاحونة الهوائية، فأنا لم أكن لأرى في هذه المسألة أي شيء يستحق الحدق والمهارة. كنت إذن غارقًا في سبات غبائي إلى أن حلّ يومٍ حاول فيه معلم كبير السن، كنت أكن له كبير الاحترام لكونه كان قاذرًا على أن يجعل، حقًا باستعمال يديه، أكثر الأمور صعوبة أمرًا واضحًا شديد الشفافية، فحاول أن يقوم أمامي بعملية يضم فيها كل ضلع من مثلث، أو مضلع سداسي، أو ثماني أو عشري... إلى أن يصل إلى... وفيما بعد إلى نصف دائرة، أو أي منحني كيفما كان... وكان يتفوق في كل هذا! إذا وضع على الوتر، فإن أي شيء كان يجمع الآخرين. بالتأكيد أن على الثلاثة أن يشتركوا في نوع من التشابه، وبما أن المضلعات، وأنصاف الدوائر والمبنيات تخضع جميعها إلى المحاكاة الهندسية، فإن ذلك المعلم الماهر كان ينتهي إلى القول بأن بين هذه النظرية التي تنسب إلى فيثاغورس والتي تعتمد القياس المتري، ونظرية طاليس حول تشابه المثلثات التي تصف الأشكال، ليس بينهما اختلاف حقيقي؛ فكل منها يعبر بطريقته على طبيعة المكان الأوقليدي. كنت قد رأيت فيما قبل الخطوط والزوايا، وقرأت الحروف والأعداد، إلا أنني لم أنتبه قط إلى الامتداد في شفافيته وعريه. خلف مظاهر الرسم، اكتشفت ذلك لأول مرة بشكل واضح، مثل بحر اليونان منطوza إليه من الطائرة، وهو يلمع بآلاف القلاع المرصعة بالجواهر والأحجار النفيسة. صرت أومن بالهندسة. حيثنّ، وحيثنّ فقط عبرت الحسر مبهوزا كحش



صغير.

... ثم وضع ملاك

الرب نفسه على الطريق كي يقطع

الطريق على بلعام وقد ركب أتانته، لما رأت هذه

الملاك، حادت عن الطريق، وانطلقت تجري في الحقل.

لم ينتبه صاحبها لما رآته، أخذ ينهال عليها ضرباً فأعادها إلى

الطريق. حينها اتخذ الملاك موضعه على طريق محوَّف كان يمر عبر مزارع

الكروم بين جدارين قصيرين. لما رآته الأتان انقبضت، من غير أن يرى بلعام

شيئاً، فأخذ يضربها من جديد. حينئذ وقف الملاك في ممر ضيق، بحيث لا

يمكن تجنبه، لا يميناً ولا يساراً. رآته الأتان فانهارت، تحت بلعام الذي أخذ

يضربها من جديد. قالت له الأتان: ماذا فعلت لك حتى تضربني ثلاث مرات؟..

هذا التعداد لتعيين من عليه الدور، في الكتاب المقدس، يعزييني. يمكن

للحمير في بعض الأحيان، أن تدرك الملائكة التي لا يتبينها سادتهم، حتى وإن

كانوا من العرافين. لا تنفك الرياضيات تقدم كل يوم أمثلة على هذه التجارب.

أن نرى في الأمر شيئاً أم لا نراه. في حالة نتعلم منها التواضع، الذي لولاه لما

استطعنا أن نفكر، ولا أن نعشق، وفي الحالة الأخرى، أن نعبر جسر الملائكة

فتدخل الأتان والحمار وأنا في حالة وحيد نادرة.

هكذا ترسم رواية الكتاب

المقدس كبير الملائكة الذي

نحفيه شفافية المكان في

بلعام .

مدرسة ألمانية، القرن

الحامس عشر.

.. هكذا جسدت المكان

الشفاف الذي لا يفصل

الهندسة عن عيد

الغطاس.

in die wener der hohe sing amen. Die sirmon  
ab du bist vergagte du volk chamon. Du hast  
gegeben ir sin in fluch. und die rächter in ger

Das XXII. Capitel. my  
Balaab seinen hore sonder zu Balaam das er  
zu m fone r. das volk israhel vermal. deret.



MS sye giengen auß  
in satze die herbergen in den felden  
moab. das da ist gelegen bey ibendho  
venhalb des iordans. Waij do balaab d sin se  
phor het gesehen also die ding die israhel tet de

net auff dem flus. des landes d sin amen da se  
in voderen en spreche. wih ein volk ist außge  
gangen von egypte da do bedecket das antlitz d  
er de. en sitet wird m. ch. Darumb tum end fluch  
ditem volk. wan es ist stercker den israhel. ob uhe

إذا كان إيمانويل كانط Emmanue Kant قد حسد في عيون الفلاسفة مبناء كوبيكسورع، فإن أويلر Euler قد خلده بالنسبة لعلماء الرياضيات. عبر شتلات من الخزر، يخترقه نهز بريجيل Prege عبر بعيد عن مصه حار عبقرى عصر الأنوار السويسري ليوبهارت أويلر Leonnard Euler، وصديق عائلة بيرنوي Bernoulli في مدينة بارل Bâle مسقط رأسه، تلك العائلة التي كانت تصم بدورها ثلاثة عابرة سويسريين، حاز منذ صغره شهرة كبيرة حتى إن الملكة كاترين العظمى دعتة للتدريس في سان بطرسبورغ. مناح روسيا القاسي جعله عرضة للمرض حتى إته فقد هناك إحدى عينيه، ثم توفي أعمى لاحقاً. أما فريدريك Frédéric، الأكثر تويزا كما تعلم، لكن أكثر ملوك ذلك العهد غيرة، فقد حثه على المجيء إلى بروسيا، حيث كان يحتمع من حوله، وبفضله، أحسن من تعرفهم أوروبا من علماء وكتاب وفلاسفة وموسيقين وهكذا فقد عبر الحلقة التي عرفها مويرنوي Maupertuis أو ديدرو أو فولتير.

ها هو الآن ليس بعيداً عن المدينة الروسية بالصبط حيث كان كانط يكتب خلال السواب نفسها، هناك إذن بحري بهر بريجيل Prege، وهما على طول حريتين متتاعتن. لست أدري كم عدد الجسور في المدينة ذلك الوقت، علماء الرياضيات وأنا، لا بولي الان أهمية للتاريخ كان أويلر Euler قد شيد سبعة جسور، أو أنه كان يفترض ذلك، هل الأمر صحيح أم خطأ، أهو حبال أم واقع، لا يهم، هناك أربعة تربط الصغين بالحريرة الأولى، واثناا تربط الصغين بالحريرة الثانية، ثم الأخير الذي يتحطى الدراع الثانوي للنهر. والان لنذهب في برهة يقول أويلر هل يمكن أن يرسم مسارنا بحيث نمر بالجسور جميعها، شرط ألا نعب كل واحد منها إلا مرة واحدة؟ لقد أثبت، اعتماذا على نظرية، استحالة هذا المسار.

لا يتعلق الأمر بأحذية اقترحها محلة أطفال على قرائها. ذلك أن جسور مدينة كوبيكسورع السبعة تلك ستقود المتجول، إن هو انتبه إلى خطواته، نحو عالم حديد، بإدخاله إلى مكان آخر وهندسات عربية. في هذه المدينة بالذات، وفي الوقت عينه تأمل إيمانويل كانط في اتجاه جهات المكان، والحسر اللتوي الذي نحدثه بدانا اليسرى واليمنى المتقابلتان وعبر المتطافتين، وكذا ذلك اللاتماثل العجيب الذي يجعل حريش عبر مطانقين رعم أن أحدهما صورة الآخر في المرآة، والذي بدعوه اليوم ثنائية الشكل énantiomorphe التي سيجعل منها باستور Pasteur وشرودينغر Schrodinger لاحقاً، مفتاحا لعلوم الأحياء. إلا أن اكتشاف هذا الحسر الأول في مدينة كوبيكسورع، ذاك الاكتشاف الحاسم بجميع المقاييس، لم يعمل إلا على إقامة عفة مطقية في المكان المعتاد، بحديذا

# جولة في سبعة جسور

المكان الذي بُني في الجسر الغريب لذلك التماثل غير المألوف. لقد ظل كائناً سجين إقليدس، صحيح أنه يجسر بطريقة جديدة، لكنها تظل داخل المكان الإقليدي التقليدي.

أما أويلر Euler فقد خرج ذلك اليوم من مكان إقليدس. ذاك أنه أعلن عن طريق رسم الجسور السبعة، الخصائص الداخلية لهندسة سميت آنذاك هندسة الوضع، وهي هندسة لا تعتمد القياسات والتكميمات، هندسة شبه وصفية، منها استقى لاحقاً كل من ريمان Riemann وبوانكاري Poincaré الطوبولوجيا. تعتبر الطوبولوجيا متكافئة جميع الأشكال التي يمكن رد بعضها إلى بعض عن طريق تغيير متواصل للشكل ومن دون تمزق. ارسـم دائرة على منديلـك، اعـضـر الثوب، ثم ضعـه في جيبـك. ستعتبر هذه الطوبولوجيا أن الشكل الآخرق الذي ستأخذـه الدائرة حينئذ شبيهة بالدائرة الأصل، اللهم إلا إن تمزق الثوب عند خطوط رسم الدائرة. هذه الخاصية التي تقوم عليها الطوبولوجيا، هذا التشابه في الأشكال homéomorphie يفترض أن كل شيء يمكن أن يتغير في شكل من الأشكال شريطة ألا نـخـيـط الثوب الممزق.

هذا هو السبب الذي جعل السؤال الذي طرحه أويلر في كونيغسبورغ، فيما يتعلق بالنزهة فوق نهر بريجيل، يستعمل أحسن الصور الممكنة: صورة الجسور. ذلك لأنها تربط ما لا رابط له، والغاؤها من شأنه أن يفصل المتصل. أعود فأقول: غيروا الشكل، فإنه لا يتغير، لكنه سيتغير إذا، وفقط إذا أنتم جنترتم الصفاف وقطعتم الجسور. علم المكان، علم الجسور, Topologie pontologie.

والآن، أذهبوا لتتجولوا في البندقية أو أمستردام.

# ONINGSBERGA



1 Das Kloster  
2 Haherbergsche Kirch

رسم ماثيو ميريان Mathieu Merian (1593-1650) هذا المخطط في كونيكسبورغ قبل ميلاد كانط وأويلر. لا شك في ذلك؛ فقد كانت هناك سبعة جسور أقيمت على ذراعي نهر بريغيل، عبرها تمكن العقبريان الرياضي والفيلسوف من اختراق الماء. لا تعتبروا أن في ذلك نوعاً من الحتمية: كان في استطاعة أويلر أن يتوصل إلى نظريته في مدينة من غير أنهار ولا جسور، كما أنه كان بإمكان كانط أن يكتشف جهات المكان في الريف. التاريخ لا يسمح إلا بالمصادفة على حكايات الاكتشافات.



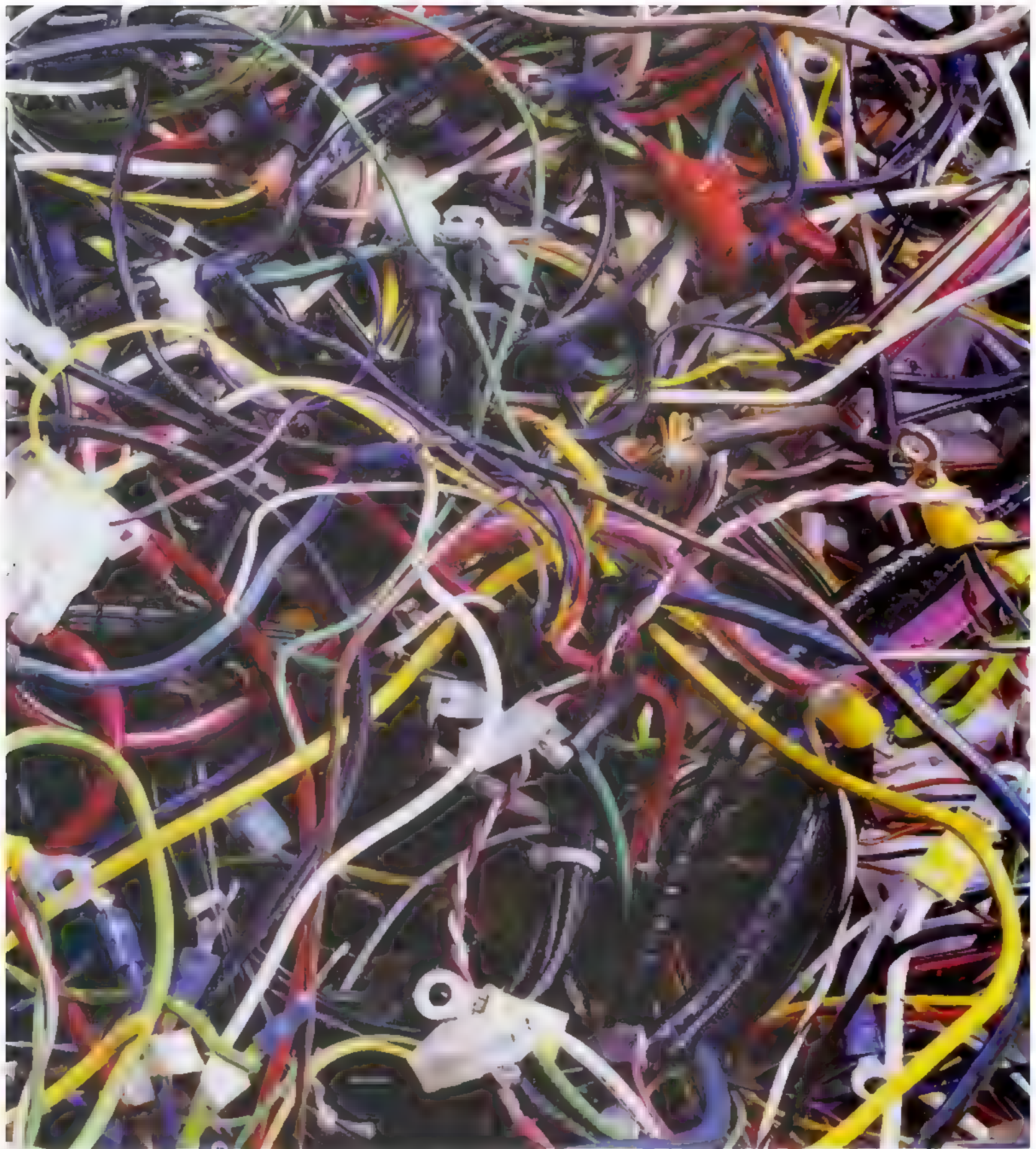
حلمت منذ فترة طويلة ببناء جسر آخر: أن أجمع بين علمي  
عصر الأنوار، كانط وأويلر، وأوحدتهما، أن جاز لي القول،  
مدى الحياة. عندما زعم شرودينغر Schrödinger أن  
الحياة تشبه قطعة بلور غير متجانسة، فقد استعاد،  
من دون تغيير، حدس باستور Pasteur، الذي  
تلقى تكوينه في البلوريات، والذي كان يمتنع في  
الكائن الحي ثنائية الشكل التي كان كانط قد  
نبه إليها. ومنذ ذلك الحين والثنائية ما برحت  
تؤرق الكيمياء الحيوية.

أما فيما يخصني، فأنا منبهز بتطور  
الجنين، الذي يكون مستقزا بالتأكيد في  
بعض النواحي، إلا أنه لا يكف عن التحول  
عن طريق تمزق أنسجته وطيها، وعن طريق  
العلائق التي يربطها، من غرز ورتق، وقطع  
وفتح، كما أنني بالكيفية نفسها، مدهش  
من تواتر هذه العمليات نفسها من طي وقطع  
على مستوى الخلية وجزيئاتها التي غالبًا ما يحدد  
طبيعتها وظائفها، لذا فإنني أتساءل لماذا لا تُستثمر  
الطوبولوجيا استثمارًا أكثر وأفضل هذه المجالات التي  
يتجلى فيها دون انقطاع تشابه الأشكال ويتلاشى.

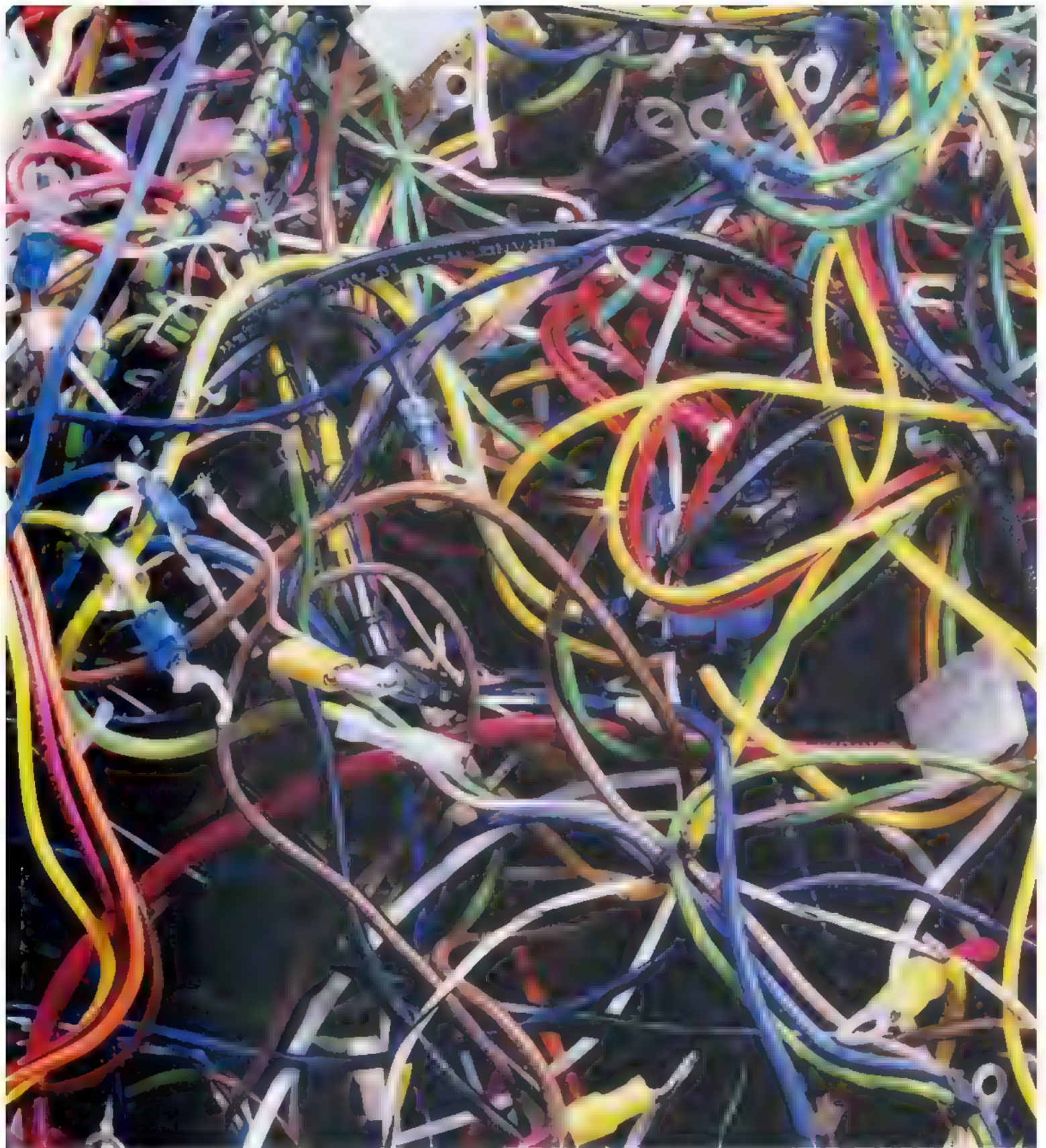
حتى الحياة تمر من جسور مدينة كونيغسبورغ السبعة.

هل تعلم أن ملايين التفاعلات الكيميائية في الثانية  
تتم في رحم المرأة الحامل؟ المجد للرحم، وللأرقام  
الخيالية التي تجسر، من البويضة إلى المولود الجديد، وفي  
غضون أشهر قليلة، مستويين من المقادير لا علاقة بينهما: من  
الحلية الوحيدة إلى نحو ألف مليار خلية متخانة ومضطمة ومتراصة.  
يا لها من معجزة!





ما العبقرية التي يمكنها أن توجه نفسها في هذه المناهة التي تمثلها أسلاك الكمبيوتر؟ مقارنة بهذا، هل بإمكاننا أن نحسن ما سلم النقادير الذي ترتفع إليه العلائق والتوصيلات والمسارات والطيات والمعابر عند الكائن الحي؟ وبالأخص في الدماغ، حتى دماغي أنا عندما انا في عطفة



# وأخيرًا تم التقاط صورة للأشعور

تعلقُ بذهني ذكرياتٌ مؤلّةٌ عن الأشعال التطبيقية في المدرسة الثانوية. كان علينا أن نُشرّح الصفادع، من غير أن نسمع صراخها، كما كان علينا أن نلصق بطاقات بشارورات ررقاء وخضراء، وأن نوصل الدوائر الكهربائية، وكان هناك زملاء يشغفون بذلك إلى حدّ أنه كان بإمكانني أن أسرق محافظهم الجيبية من غير أن ينتهوا للأمر، بالطبع كنت أعيدها عند الخروج من غير أن ألسها، كان علي أن ألسي عما يحالجي من سام لشدة ما كنت أشعر به من غربة عن هذه الاشغالات التي كنت أنتظر بفارغ الصبر نهايتها كي أفرغ للعب الكرة.

باستثناء مرة واحدة. حَبَرني بناء جسر يسمى جسر ويتستون Wheatstone. لعل بعض القراء يذكرون جهازًا شبيهاً: وهو مكون من شبكة من المقاومات والمكثفات، والأسلاك، والمعابر المعقدة. كان عسير التركيب، ويحتاج إلى عمل شديد الدقة، لوضع الأجهزة في مكانها المناسب وضبطها.. كل هذا من أجل لا شيء. هللت لانتصاري! ها هي اللاجدوى في أبلغ صورها قد تحقّقت، نتيحة عمل جاد وشاق! أشعال تطبيقية أُلغيت أخيرًا! كنت أقول في نفسي، إنه عمل في أعرب.

يتطلب هذا بعض التوصيح: فهذا النسيج الرهيف حيث تمرّ تيارات كهربائية ترغم على التناطؤ والتسارع والتقويم والتصفية بكيفيات متنوعة، كل هذا النسيج كان يصل إلى نوع من العقدة أو مفترق طرق، وباحتصار، إلى نقطة نهاية حيث، ويا للعجب! يكون فرق الجهد مساوياً بالضبط لذلك الذي كان يمكننا قياسه في عقده ومفترق طرقه الأول، أي نقطته الأصلية. عند الانطلاق هناك مقدار هو الذي نلغيه عند الوصول. فكما لو أن الشبكة لا وجود لها، كما لو أن التيار لم يحترق إلا الفراغ. كما لو أن هذا التراكم غدا شفافاً، كما لو أننا اشتغلنا من أجل أمرٍ تافه. كل هذه الأشكال من العشق والملذات والفرح الإلهي، صفر يساوي صفراً. يا له من تقدّم. قلّتها لكم ما يكفي، من الأفصل لعب الكرة المستطيلة.

كنت سأنسى هذا الانتصار الجمالي وغير المتواضع، لولا أنني اطلعت، بعد فترة طويلة، وعندما أصبحت مؤرخاً للعلم، على كتاب المطول في الكهرباء والمغناطيس لماكسويل Maxwell، حيث عثرت في الصفحة كذا، على صديقي القديم الأعرب، جسر ويتستون Wheatstone. في هذا المكان بالسط يصع المؤلف أسفل الصفحة الهامش كذا، يحيل فيه إلى عالم رياضي ألماني يدعى ليستينغ Listing، لكن لا يهم الاسم كثيراً، وإلى هجاء كتبه تحت عنوان Raumliche Complexe، استعاره عنه الفيزيائي الإنجليزي كي يطلقه على هذا الجهاز. عذراً على التقصير: الجميع في هذا العصر كان يطلق على تلك الشبكة، وعلى ذلك الجسر لفظ معقد Complexe. إنه اسم جيد في الحقيقة، لأن الأمر يتعلق بسياج دي طيات معقدة، وهو اسم ممتاز على الخصوص، لأنه في حدود ما سمي معقداً، لا شيء يمكن إدراكه، لأن فرق الجهد ينعدم عند تلك الحدود. إنه يوجد، ولا يوجد في الوقت ذاته. وهو يعمل بشدة، لكن دون أي تأثير ملحوظ.

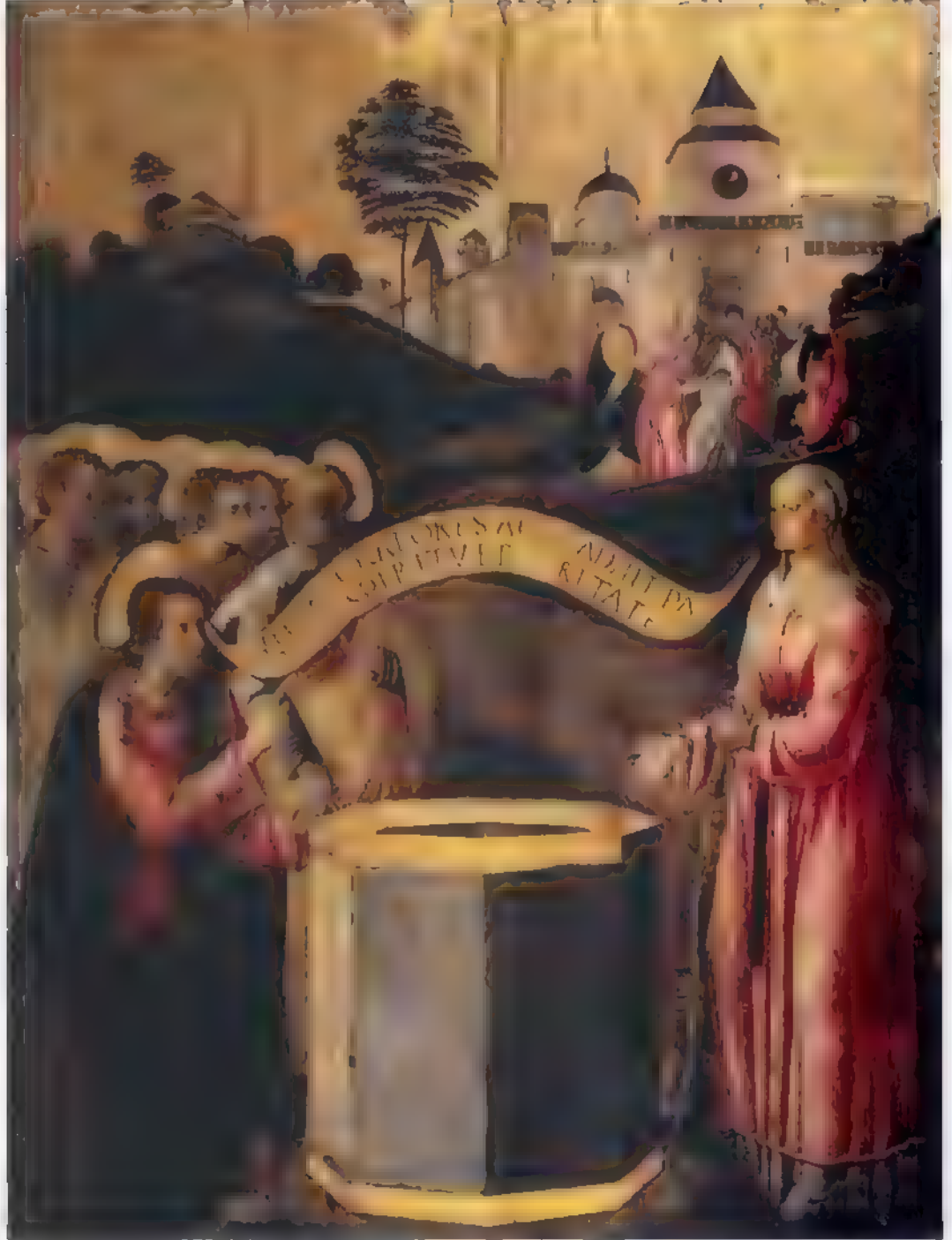
يسعى ريادة متحف تقي حتى يقدر تمام  
التقدير طرقا في التفكير عندما يحترق  
العضوية في آلة، ينبغي أن لحدد أية  
آلة، كما ينبغي أن نتعلم أن مخترعي  
هذا الاختزال كانوا يرون قديما في الجسم  
البشري روافع وبكرات، وفيما بعد قاطرة  
دافعة، وباختصار، أجهزة تبدو لنا اليوم  
قد مضى عليها الزمن، مثل هذه الآلة  
التي تريد في العمر، والتي تعود إلى ما قبل  
الإلكتروني (1919): فكما لو أنها ديناصور.  
كيف سيظهر أطفالنا غذا إلى أجهزة  
الكمبيوتر التي ستخدمها نحن؟

تصوروا الآن أنسحة معقدة من الطاقات مشدودة في حجة ما  
في نفوسكم، وقد شكلت كومة مزدحمة أو ازدحاما متراكما من  
مرشحات وفرامل تغير نفوسكم وتقبط عليها، تسحقها وتسجنها.  
ثم حاولوا فيما بعد أن تتصوروا أن كل اختلاف سينعدم عند حدود  
هذه الشبكة، الفعالة، لكن المنفعلة في الوقت ذاته، فإن نفوسكم  
ستعجز مطلقا عن تبين ذلك.

إنها ستعمل بشدة، وتتعب  
من أجل ذلك، لكن، دون أن  
تتمكن من معرفته ولا إدراك  
جزئياته وتفاصيله. وأعجابه!  
هذه خطاطة شبه شفافة  
عن اللاشعور، خارجية،  
مكانية، قابلة للرؤية والقراءة  
والحساب! كانت متعة صباي  
تتأتى من كوني، ومن غير أن  
أعرف بطبيعة الحال، أفتحم  
حينئذ غرفة سوداء مزودة  
بنور فيزيائي يفتت ظلمتها أو  
يفسرها.

فهل كنتم تعلمون إذن أن  
عددا مركبا يشكل جسرا؟





لدينا ثلاثة أفواه: الفم الذي يسلم، حباً، والذي يشرب، من شدة العطش، ثم ذاك الذي ينطق، الفم البشري. من يتر المرأة السامراتانية a Samaritaine يسع شراب الخلود الذي يحسر تلك الأفواه الثلاثة للسيح والساماراتانية، مسنونة لفيان لازارو باسنياني  
 Le Christ et la Samaritaine, attribué à Lazzaro Bastiani (1430- 1512).

# الكتابة، الكلام، الإصغاء

أتحدث إليك فتجيبني. يخرج من فمي حسر سيرتمي في أدنك، وسيستق من شفتيك آخر سيعرق في أدني أنا. اسطر إلى الآخرين يتحدثون فيما بينهم، فهل يعون بأن أحسامهم تشكل أعمدة يمتد عليها جسر آخر بينهم؟ إننا لا تثبت قط جسر التهذات هذا، حسر الرباط، هذه القنطرة القديمة للمعلومات البشرية، الشفافة، الصوتية، الموسيقية، التي من دونها سنكون صمًا بكفًا، فنعيش حياة أقل جودة، مرتططين فحسب بالإشارات، والهمهمات والصرخات، بجسور منهارة. واقفين كأعمدة، عبر وجوها تمتد جسور. تُجسّر اللغة فضاءنا. والأشياء التي نتبادلها تمر أولًا عبر هذا الجسر.

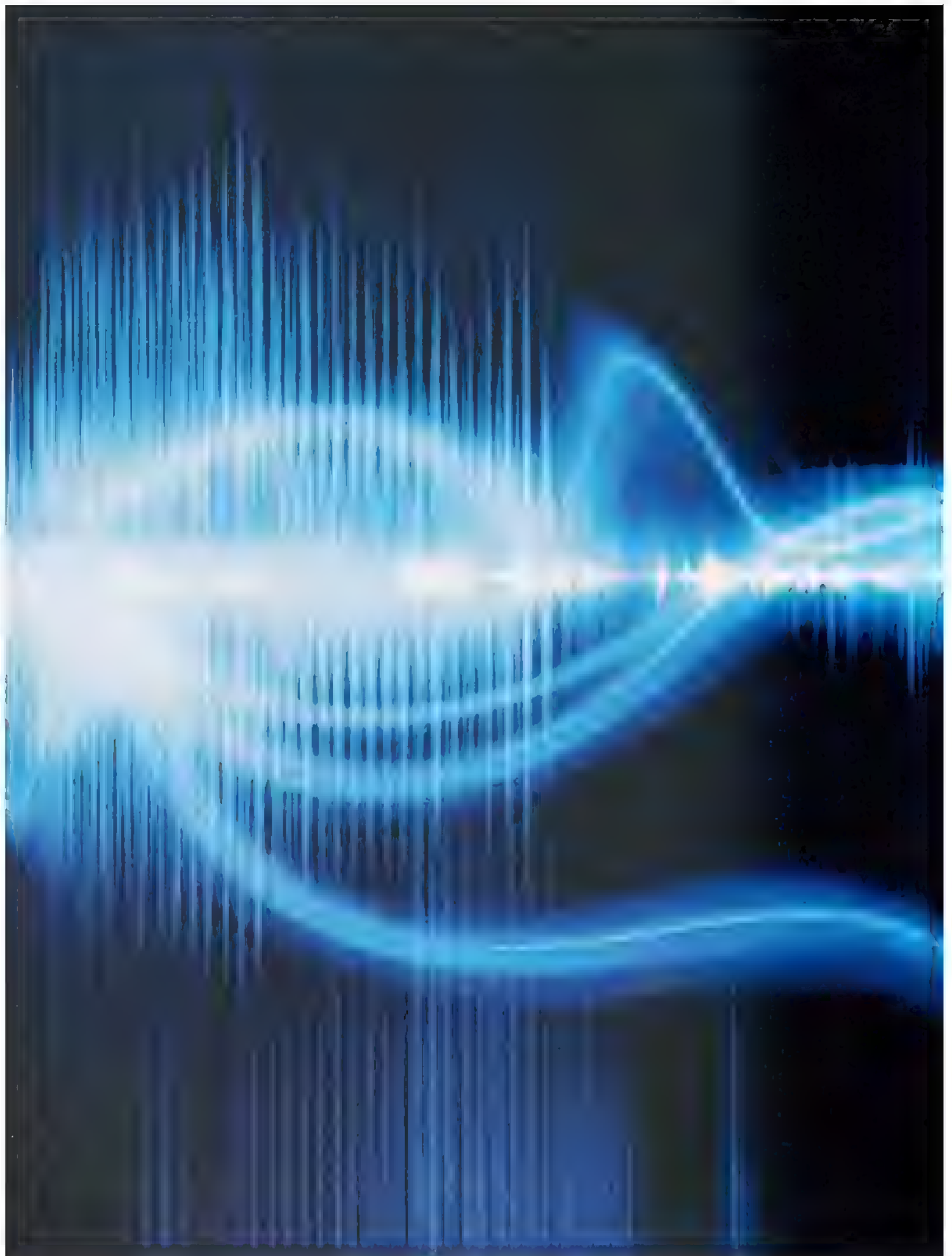
أكتب إليك، فتجيبني. يخرج من يدي جسر سيفرق في عينيك، سينثق عن أناملك جسر آخر سيضيء عيني. انظر إلى الكتب المطبوعة: فهل نعي أن هذا النص لم يتحرك، وأنه ظل ثابتًا منذ أن كتبه مونتي أو مجهول آخر، منذ أربعة قرون أو عشرة أيام؟ وأن جسورًا معلوماتيًا امتد ليكمل حمولته اليوم في قصدي، وضغيني أو حماسي؟ إن الكتابة تجسّر زماننا.

الأمس البيانو، فتستمع. يصدر من أوتاره جسر، كان بلا شك، قد صدر قديمًا من فم فريديريك شوبان وحباله الصوتية، وهو سيمتد بعيدًا بفضل أناملي، تلك الأعمدة التي تتوسطنا، محدثًا اهتزازات، مالتنا العشاء، حتى يبلغ التجويف الصدري لمستمعي، وينفذ إلى أحشائهم. فهل نتفرغ اليوم إلى نقل صوت خرج من النسيان، كما لو خرج من الحميم، وتساعد من أعماقه، مثل شبح عائد، بفعل النداء السحري للضرب على الصندوق ذي الملابس البيضاء والسوداء، كما لو كان على خشبات نعش؟ إن الموسيقى تجسّر زمكاننا.



تجشّر الأذن النفس والجسد ما بدعوه  
أذنا خارجية يلتقط الإشارات: الأصوات  
الشائكة، الموسيقى العدية، مقاطع  
فكر، خطأ وحقيقة، ضغينة وحب،  
اهتزازات عاطفية. إذا كنت أصم،  
فأنا معرض لتصبيح المعنى. أما الأذن  
الباطنية، فهي تساعد على التوازن،  
واختلالها يؤدي إلى الدوار، والنعنيان،  
وفقدان المرجعيات المكانيّة. إذا كنت  
أعرف المكان المضبوط الذي تتجاوز فيه  
الأذان، الخارجية والباطنية، فإنني  
سأندوق سر الارتباط بين استقامتي  
في العالم وفهمي القلق للأشياء  
والآخرين. عصو دكورتي في الأذن  
الباطنية: اهتزازات الشعيرات تنقل  
كهربائيا الحركات الميكانيكية.





أبرهن أمامك  
على نظرية فيثاغورس،  
التي تسمى في بعض الأحيان  
جسر الصعوبات. ينبثق من العصر  
القديم الجسر العظيم الذي كان ضائعاً منذ  
عهد بعيد في تفاصيله، لرسالة لم يلحقها تغيير منذ  
ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة. لا يحصل هذا قط. يكاد مغزى ومرامي ذلك  
الذي اكتشفها يصلنا اليوم من غير ضحيّ ولا حذف ولا تكرار ولا حاجز، عارياً شفافاً، مثل  
مولود جديد خرج من قناة والدته، لحظة يظهر فيها. إننا نتلقاه الآن، وهنا بالضبط، كما صدر  
قديماً هناك. جميع الرسائل الأخرى، بدون استثناء، من سياسية ودينية واقتصادية وثقافية،  
تمزّ عبر جسور تحبسها مصافي وحيل، وأكاذيب، ورجال ضرائب وشرطة وكل ما ينغص المرور.  
كل القصص ترشح، مثل صهاريج مخترقة بعشرات الثقوب، مثل برميل الدبايد Danaides  
المنفصل الأعضاء الذي يسيل ببقايا نسيان (بات الملك داناووس Danaos اللواتي حكم عليهن  
بأن يملأن في الجحيم برميلاً مثقوباً). دائماً وفي كل مكان، تنهش ألف من الطفيليات المعلومة  
التي لا نلتقط منها في النهاية إلا الفتات. لا يمكننا أن نحافظ على الثقة إلا بهذه الرسالة.  
وحدها الرياضيات تجتسر الذاكرة، ووحدها تجتسر التاريخ.

هذه رياضيات أصواتنا: تجسر الصواب والخطأ، الضغينة أو اللطف... المنحنيات تهتز،  
إنها عالمية.

# الكاتب يجسر اللغة المشتركة

نسمع في مراكز الأشغال عبارات من قبيل 'La culée contre-bure والحدادون، يفهمون هذه العبارة. إلا أن علي أن أترجمها إلى معظم القراء بهذه الطريقة: ينبغي بناء هذه الكتلة لاحتواء الدفعة التي يحددها ضلع هذا الجسر ودعمها. عن طريق هذا المثال، نتبين أننا نتكلم لغتين على الأقل: لغة حرفتنا، بناء جسور، إسكافي، طبيب توليد، سباك، نائب برلماني، نجار، محامي، ثم اللغة التي نستعملها مع جيراننا وحفيدائنا في الحياة اليومية. المزج بين اللغتين تتولد عنه نتائج لا تخلو من جمال وهزل. وأنا ملاح صغير السن، أطلعت طبيب السفينة على الأوجاع التي تسببها لي السفينة. إن اللغة التي تتكون من متون مختلفة، متني الرياضيات والجلد أو الخشب، والجراحة أو الإعلاميات، كل متني موجه لتخصيص بعينه، تعمل على خلق الوحدة بين المتحدثين بها عن طريق هذا المعجم المشترك الذي يستعمله الجميع. عندما نتكلم الإنجليزية، والفرنسية والأردية والصينية. نسمع هذه اللغة المشتركة، ما كان الإغريق يدعونه koinè، ذلك المفصل ذا المئة لهجة الخاصة التي تشتمل عليها كل لغة. إنها تعمل جسراً يعبره يومياً كل متحدث.

بشكل عام، وبالنسبة لعشر لغات مختلفة، فإن العالم والتاريخ لم يحلوا قط من لغة تواصل يمكننا أن ندعوها لغة عالمية. لقرون، تحدث البحر الأبيض المتوسط اللغة المشتركة الإغريقية koinè التي جعل رسوخها اليهود يستعملون لفظ synagogue، والمصريين لفظ pyramide. استعمل العالم المأهول اللاتينية خلال ما يقرب من ألفي سنة، قبل أن تصبح اللغة العربية، لمدة طويلة، والفرنسية لمدة ثلاثة قرون، والإنجليزية اليوم، بالتناوب الوسيلة المناسبة للتجار والملاحين والأطباء وعلماء الفلك. كل هذه اللغات استخدمت وتستخدم وتستخدم حسراً يعبره كل يوم من يسافرون من ملاحين وباحثين في العلوم، وملحقين بالسفارات وسياح... لن نستطيع أن نخمن من سيحمل المشعل غداً. توشع السماء الليلية تاريخ لغات التواصل هذه: نجوم بأسماء هيلينية، تلمع فيها أنتاريس Antarès وأركتوروس Arcturus بعيداً عن السيريوس Sirius اللاتيني وعن الرجل Rigel أو بيتلجوز Bételgeuse العملاقين الأزرق والأحمر اللذين أطلق عليهما العرب تباغاً رجل الجبار وند الحوزة. لم تكف الإنسانية مطلقاً عن التحدث بهذه اللغة المشتركة، التي أصبحت تُسقط على السماء، وخصوصاً اليوم، حيث نظير من ندوة إلى مؤتمر، في جميع خطوط العرض، وحيث يلاقي مئة سائح عشرة آلاف مهاجر.

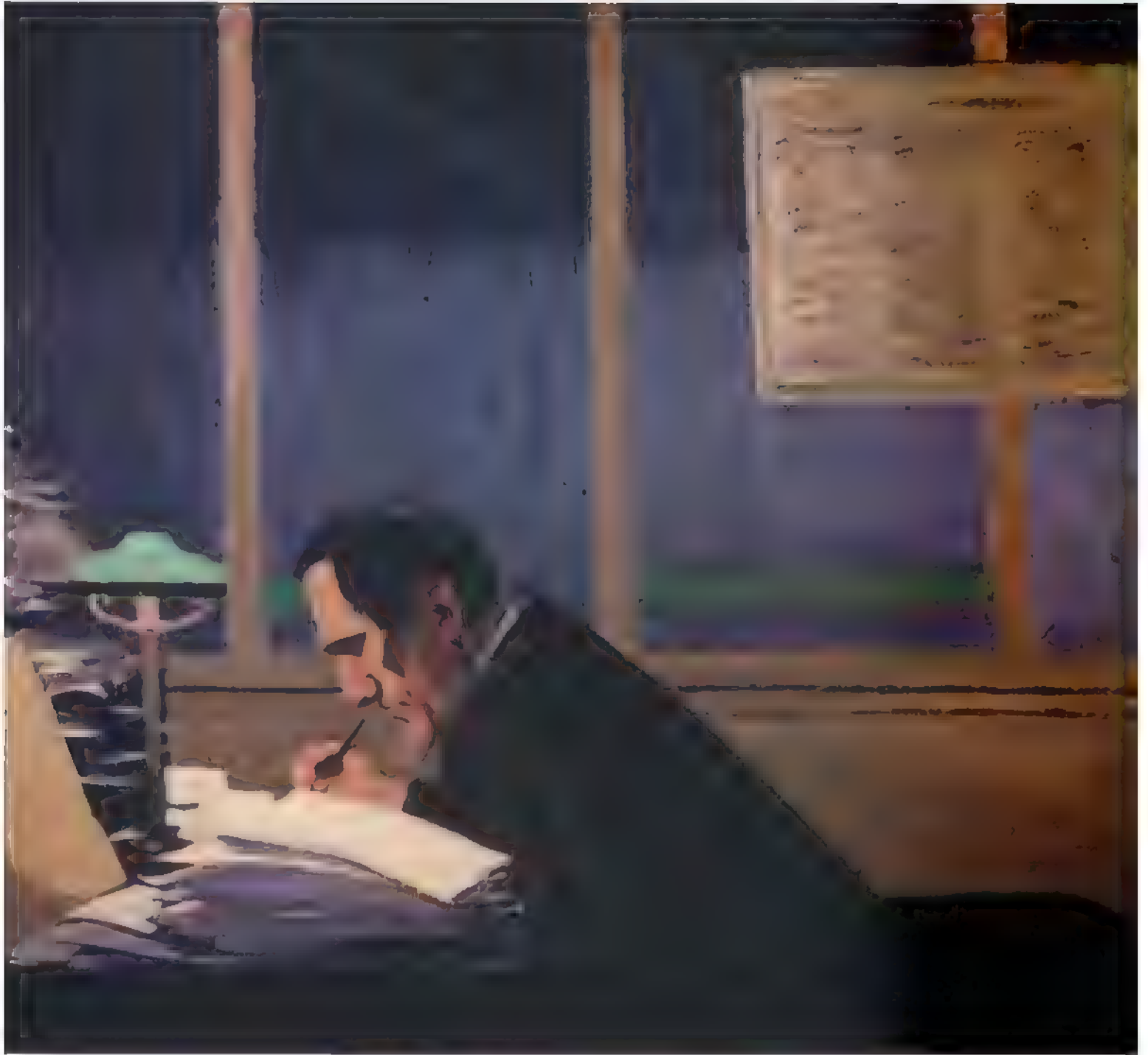
مثل بقية اللغات الأخرى، فإن لغتي، ال la koinè التي نتحدثها يوميًا، تتألف، بالإضافة إلى ذلك، من عشرة متون أخرى. هي المشتركة، تعيش بفضل اللغات الأخرى الخاصة. نعم أنا أحدد اللغة على أنها اللغة المشتركة Koinè الباطنية لكل هذه المتون المتعددة والمتفرقة والمتخالفة. إنها تستعمل، بطريقة فضفاضة، الألفاظ الدقيقة المضبوطة، التي تستخدمها العلوم والفنون والحرف. مثال على ذلك: إذا كتبت *poutre et câble* (جسر وحبل)، فإن الجميع سيفهمونكم، إلا الملاحين الذين يقولون *aussièr*، والنجارين، الذين يقولون *arbalétriers*، والحال أنكم إن كتبت هذين الكلمتين فلا أحد سيفهمكم. أما إذا ملتزم إلى استعمال الكلمة الفضفاضة وردة للدلالة على *myositis*، أو *cyclamen*، أو كلمة حبل للدلالة على *bitord* أو *fil de caret*، فإن أهل الحرفة سيقولون لكم إنكم لا تعرفون عما تتكلمون. يتمخض عن ذلك، التعريف الحاسم لمهنة الكاتب: إن دوره، بل واجبه، هو أن يفتح، في الزمن الفعلي، سبيل التواصل بين هذين الخطابين، أعني أن يبني، خجرةً خجرةً وكلمةً كلمةً، جسر اللغة المشتركة koinè داخل لغته هو. إنها تعيش حقًا هذه الحركة المتواصلة التي أبدعها الأسلوبيون الكبار، وهم يجتثرون هذه المتون ويربطونها مع اللغة المشتركة.

الكاتب الجيد هو خير *pontife* اللغة.



«بحرام الكتفي، الدراعان، ولسيفان المفتوحة بالزاوية نفسها... تحوّل الجسم وهو يعمل إلى فوس جسر.

Homme taraudant le bois de la Croix, Albrecht Dürer, 1518.



صار مقص الحشب وشعرته هو انقلم ونقطته. تحوّلت الخشبة إلى صفحة ورق، والشق إلى أثر. تحوّلت العدة الثقيلة إلى أوراق طائرة، والنجارة إلى خدش، والنجار إلى كاتب. لكن، سواء انبعث من المصباح أم من الهيكل، فإن النور نفسه يضيء هذين العيين، واليدان اليمى واليسرى تسدان القوس نفسه بلكتفين على راوية الظهر نفسها. بواسطة العمود الفقري، المائل، ولرأس المنتبه والأصابع العشرة، الماهرة، فإن جسم العاملين يجسر العمل والتجريد، وهما معا يدويان على النحو نفسه.

Félix Feneon à la Revue Blanche, Félix Vallotton, 1900.



عندما كنت أفتح قديمًا غرفة، فأرى تنورة بيضاء ملطخة، أصرخ: هذا كيميائي! وعندما أرى سترة رمادية، وملاقط ومطرقات: هذا نجار! وعندما أرى شاطئًا شاحبًا، يحمل الطباشير في يده أمام لوح أسود: هذا مهندس. وعندما أرى تنورة من جلد أمام موقد: هذا حدادا! وعندما أرى امرأة في خزانة كتب: مؤرخة!... كيف يمكننا اليوم أن نصنف هذه الحرف، عندما أدخل الأماكن نفسها، فآراهم جميعا أمام كومبيوتر؟  
معمل السيد باكوس، القرن العشرون

# جسر الوفاء

يقترح كلانا ميثاقين ممكنين، ضمانا للوفاء؛

الميثاق الأول، ينقسمه باليمين، يضمنها مدى الحياة، مهما كانت الظروف. هذا القسم يفترض أن التغييرات الحتمية الناجمة عن الزمن والشيخوخة والتجربة... لا تغير في شيء لا القرار ولا نفس من أدى القسم. إن حدثت هذه التغييرات، فإن الطرفين يتشبهان بكلمتهما. قد يحصل أن يرقى هذا الوفاء إلى مستوى البطولة أو القداسة، الأمر الذي تؤكدته مئة حكاية نموذجية. هذا الميثاق الأول، القريب من روح القانون الروماني، الرسمي، والمؤسّس على مبادئ أو الشبيه بالاستدلال المنطقي، يُوقَّع الآن وهنا وإلى الأبد؛ إنه خالد كما لو كان محفوراً على قطعة رخام. لا تراجع عنه قط.

أما الميثاق الثاني فلم تنفك توقع على أحرفه الأولى في الزمن الفعلي. والعلاقة التي تربطها معه، لا تنفك نتكلم عنها كل لحظة، بالنسبة لكل مشروع، وعند كل مناسبة. لا مبدأ لنا إلا الاستمرارية، إلا مواصلة نقاشنا، إلا المتابعة العنيدة لاتفاق لحظي. نُقسم، اعتباراً من اليوم، أنه عند كل فرصة، ومناسبة أو حدث، فإننا سنأخذ بعين الاعتبار من غير أن نخفي عن أنفسنا شيئاً، رغباتنا وتصرفاتنا واحتياجاتنا المتتابة. هذا القسم القريب من روح القانون الأنجلوساكسوني، الشبيه بالاستقراطي، الفقهي والمؤسس على تدبير الحالات الخاصة، يتكيف مع التغييرات المحتملة ويتبعها. نتفق حتى على ما لا نتفق عليه. لا ننكح نرجع لميثاقنا الذي نعتقد أن بإمكاننا حتى أن نشوّهه إلى حد أن نجعل شكله الأول لا يمكن تعزّفه، إلا أننا نسعى إلى الاتفاق حول أي شكل جديد.

ولكن، كيف كانوا يعملون من غير GPS، كيف يلتقي بهذه الدقة هذان الذراعان اللذان يرتمي الواحد منهما نحو الآخر على هوة تحفه الأخطار؟  
قنطرة فيفيور  
Viaur، المرحلة  
النهائية،  
أبريل 1902.



بينما يسعى الميثاق الأول إلى ضمان الخلود، فإن الثاني يحيا مثل شجرة. الأول يمكنه أن يكثر، أما الثاني فيتحول ويتبدل. أحدهما يعرض نفسه للخيانة، ولا ينفك يخون نفسه، أما الثاني فيترجم نفسه بالأحرى. إما عدم التغير بفعل الزمان، أو اللامتغير بفعل التغيرات. إما صلب، أو سائل. إما ثابت، أو متحول. إما عنيد، أو قابل للتكيف. إما خالد، أو متجدد. كل واحدة من أشكال الوفاء هذه تعبر عن فكرة حول طبيعة الزمن، حول ما يتغير، وما لا يتغير. إما أن نحافظ على الاتفاق الأصلي، أو لا ننفك عن الحفاظ على القرار المشترك لتحرير اتفاق جديد.

كل واحد من هذين القسمين يدعي أنه يقتصد الطاقة والزمن: يتهم أحدهما الآخر بتبذيرهما، والآخر يتهمه بعدم التمييز بين الزمن والخلود. أتوقع، إلى اليوم، أن يكون هناك ميل إلى تفضيل الجسر المؤقت المر والحي على الجسر الحجري: ومع ذلك، فإذا كانت الأجسام الصلبة تنكسر، فإن الأحياء يموتون أيضا. لكم أن تخاروا بين جسر روماني وبين جسر ينبغي إصلاحه دون انقطاع! وكيف تتأكدون من أنكم ستجدون غدا مصالحين؟

الشيء نفسه مئة سنة فيما بعد، يحرص GPS على السجام شديد الدقة. جسر ريون-أنتريون Rion-Antirion، وصعبته سنة 2003.



أفضل بطبيعة الحال، الحديث عن الحب. لكن، ضمن الحركة  
التي يدعوها البعض عولة -كما لو أننا، ومنذ خروجنا من إفريقيا،  
لم نعبر، ولم نغز، ونحتل العالم بمجموعه- تهيمن مسائل القانون.  
إذن، يطرح في البداية السؤال حول معرفة على أي نوع من القوانين  
سنؤسس موثيقنا. فحسبما إذا اخترنا النوع الأول أو الثاني، فإننا  
سنقتحم زماناً أو آخر، بل إننا سنبتدعه. فهل توفر للإنسانية،  
مثل اليوم، الفراغ والحق في اختيار زمان التاريخ الذي سينمو فيه  
مستقبلها؟ من سيجرؤ على عبور هذا الجسر؟



## قَطْع الجسور 2

من بين لغزي العشق، لا نتحدث حقًا إلا  
عن الأول. إنها غيرت حياتي بمجرد أن رأيتها،  
كما تقول. كيف حصل أن هذا الكمال الغريب  
قد أصبح، في لحظة بعينها، الجسد الوحيد  
الذي يهم، الشخص الوحيد الذي بإمكانك أن  
تبني معه حياتك، والذي لا يمكنك أن تتنفس  
من دونه. يتحدث ستاندال Stendhal وعلماء  
النفس، والجميع عن الحب من أول نظرة، الذي  
يقال عنه أيضًا، إنه لا يحصل دائمًا. بناء الجسر يثير  
الدهشة، ونحن نرغب في التمكن من الطريق إليه.

كيف حصل، على العكس من ذلك، أن هذا  
الجسد، هذا الشخص وهذا الكلام، الذي لم يكن  
بإمكانك منذ سنين أن تستغني عنه، كيف حصل أن  
عنوانه اختفى، فتبخر كل تدفق الدم والكلام الذي كان  
يهدى؟ كنت تسكن فضاء ذا مرجعيات محددة، ينتسب  
إلى قطب، إلى وجهة نظر، إلى مركز ثقل، إلى بئر جاذب،  
نعم، إلى سرية العالم هذه، وها هي ذي كل خطوط القوة  
الموجهة نحو هذا المكان، مثل حزمة على شكل مروحة، لم  
تعد تترك أي أثر على مشاعرك.

هل يمكننا أن نعتز عن لغز هذا الاختفاء؟  
لا شيء يفنى ولا شيء يُستحدث، الكل يتحوّل  
كما يقال. ومع ذلك، فيظهر أن تفسير قطع  
الجسور أكثر صعوبة من بنائها في هذا المضمار  
الذي نحن بصدده. لا أحد يبني الأعمدة، ولا  
الأقواس في أي مكان وكيفما اتفق، ينبغي  
أن يكون هناك تقريّب بين الضفتين، وتضييق  
للسيل، وخنق للمضيق، وأن يتوفر اللباس اللازم  
لحفر الأسس، والصخور المحيطة، والأمل في ممر  
كثيف كي تعوض مداحيل العبور المصاريف، والموافقة  
على الاستثمار... بكيفية ما، فإن الجسر الذي ينبغي  
بناؤه موجود بالفعل، على الأقل افتراضياً أو كإمكانية  
بالأحرى. بناؤه يحقق هذه الشروط: لا يمكنه أن يمتد  
إلا هنا أو هناك. لكن، هل يمكننا أن نتصور اختفاء جسر  
الجار Gard اختفاء نهائياً، ومحو جسري الطاج Tage  
أو الكلايد Clyde من الخريطة، و ذوبان جسر الملائكة  
Ange أو جسر الشيطان Diabie؟

نريد للحب إذن أن يبقى دائماً. وعلى ذلك يكون السجع بين  
amour و toujours في محله.



هل هو فيلم كوارث أم هجوم إرهابي؟ أم هي نهاية فيلم الاندفاع نحو الذهب؟ أم هو انفجار الفقاعة الإعلامية؟ أم أنه محاكاة للزلزال تحت البوابة الذهبية Golden Gate في مختبر عباد الشمس Tournesol؟  
The Core, film de Jon Amiel, 2003.



## صيغة



أحلم بإعادة كتابة كتاب "جماليات كارباشيو" Esthétiques sur Carpaccio ،  
الذي تقطع صعوبة كتابته ، ليس فقط جسر السانت كونفيرساسيون La Sainte  
Conversation (القرن الخامس عشر) ، وإنما أيضا جسر الفهم. في انتظار ذلك ،  
أرجو من القارئ أن يسامحي ذلك الغموض المألومي ليزوة الشباب.

الصفحتان التاليتان: فنطرة شافانون. Chavanon, Puy-de-Dôme, 2000.

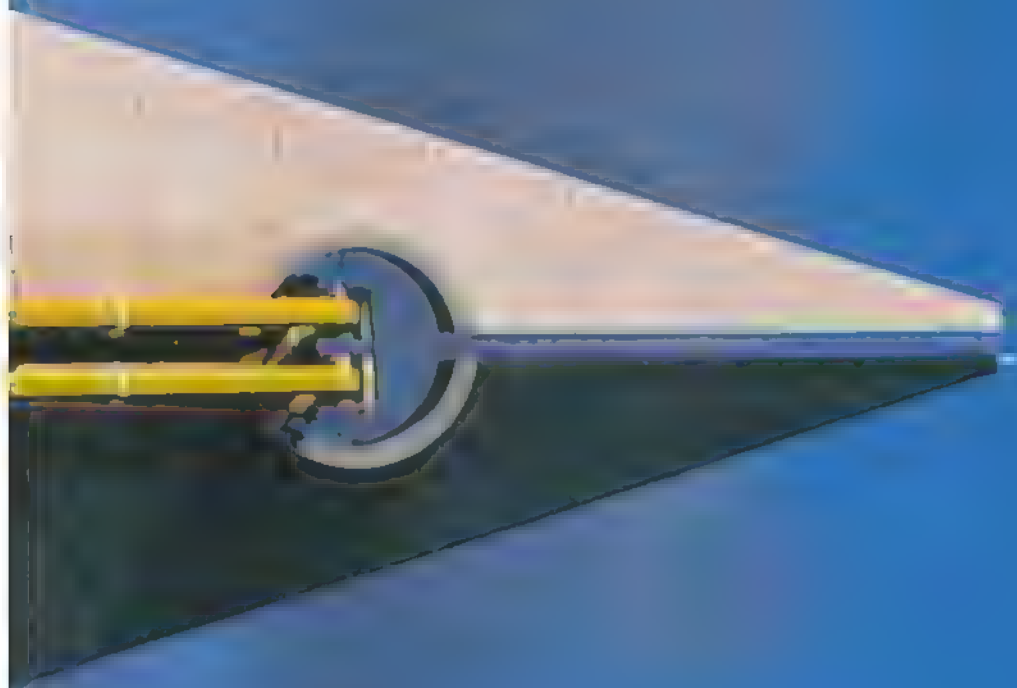
كل شفاء البشر يأتي من أمر واحد هو كونهم لا يعرفون البقاء مثنى في غرفة.

كانت ماريما، جدتي من والدي، رشيقة نشطة، تزوجت أوغسطين، وكان كسوًا قويًا، هو جدّي بفعل الأمر الواقع. يبدو أنني أشبهه. شلل نصفي أقعد الأولى، أما الثاني فقد أمضى عشرين سنة شاقة وهو يدفع زوجته من الفراش إلى الكرسي المتحرك، ومن الكرسي إلى الفراش. بقية الوقت يقضيه في قيلولات عديدة، بينما جدتي، التي كانت غير متعلمة، شأن جميع أفراد عائلتي، لكن حيوية، كانت تتدرب مندهشة على القراءة. تركت لي خزانة كتب نورماندية مليئة بحيوانات القديسين. كان الانسان، القارئة والنوام، يقطنان غرفة صغيرة بجوار غرفة والدي من غير أن يغادراها. خلال عشرين سنة كان والدي يسمعان همهمة الصوتين اللذين لا يتوقفان أبدًا منذ فجر الصباح إلى نهاية الليل. ماذا يمكن أن يقولوا لبعضهما؟ هكذا كانت أُمي تتساءل متعجبة، بينما والدي لا ينبس بكلمة.

فهل كانت تشتبه في أنهما يتحابان؟

على جسر التحول هذا، يغدو جسدينا كلفًا، ويصح كلفنا جسداً.

### 3- الجسور الحية







# جسر بناءه الجنيّ

ليت السماء تجعل قطرة من  
الإكسير الذي خرج من هذه القارورة  
تتيح لي يومًا الفرصة كي أتمكن أخيرًا  
من سؤال الجني عن رغباتي: فإن  
أعرفها، يا لها من معجزة! أن يحبيبي  
فأبلغها، أنا لا أطلب سوى ذلك.  
نحسب لآلاف ليلة وليلة. إدموند دولاك.

كانت كئيباً رمال  
تحجب عن عيني رفاقي  
في الجولة. من غير  
أن أنتبه، تأخرت  
عن الجموعة،  
فوجدتني وحيداً

غارقاً في التفكير،

وسط الصحراء. كنا قد بدأنا

السير في الشمال الغربي للصحراء

منذ أسبوع. هناك ينتابك الحلم، والتأمل،

بل وحتى الوجد، وأنت غارق في صمت أكثر كثافة من

أي مكان آخر. لا أعلم كم من الوقت، وأنا أسير على هذا النحو،

كأنني غائب، إلى أن اصطدم حذائي بقارورة. أرض هذه الأماكن المعزولة مليئة

ببقايا تنحدر من عهد كانت فيه الأنهار جارية هنا، والعباب مخرّجة. بالتأكيد، لم

تكن القارورة آتية من هذه الطبقات قبل التاريخية أو الجيولوجية. انحنيت، فالتقطتها

وأخذت أتحصها. كانسداد لم أتبين طبيعة مادته يغلق القارورة الحضراء الفارغة على ما يظهر.

وضعت حقيبتي أرضاً، وفتحت سكيني، وأخذت أحاول فك عفريت. انفجر كل شيء محدثاً صوت

جحيم. من عنق الزجاجاة المفتوحة خرج خليط من الدخان الأبيض الذي سرعان ما ملأ حجمه

الفضاء المجاور. أهي قبيلة! سقطت جالسا بالقرب من حقيبتي. رفعت ناظري مرعوباً، فرأيت

زوبعة تتكون، وتصعد نحو السماء مثل عمودٍ عملاق، أخذت تنحط ببطء، وهي تدور، طيف

إنسان، جذعاً ضخماً علقت عليه إحدى البدلات الخضراء التي نراها عادة على الدراويش، وفي

الأعلى، رأيت رأساً، نغم رأساً تخرج منه لحية رمادية وشعر كثيف. شيئاً فشيئاً استقرت

الرؤية. لم أكن قد شربت إلا الماء، فألفيت نفسي بالأحرى في هذه الحال من الوجد

التي يعرفها مشاء المسافات الطويلة. كان ذهني يتبين الأمور جيداً، حتى، وإن

كان بعض السراب، كما العادة، يهتز أمام ناظري في الأفق المشمس.

عن هذه الرؤية الغريبة صدر صوت يضاهي ذاك الذي يصدر

عن الأوتار الغليظة في الكاتدرانيات الأرثوذكسية.

Illustration des Mille et  
Une Nuits,  
par Edmond  
Dulac, XXe  
s.èc.

خاطبي:

أيها الشاب

المسافر -أحسستُ

أن عشرة أصدقاء ترسل إلي

موجات إغاثة كأصوات أرغن- أيها

الشاب المسافر، كيف لي أن أشكرك؟ حُزرتي

من سجن لا يحتمل حبسي فيه انتقامً بغيض، منذ ثلاثة

آلاف شهر وشهر، حتى الجن يعيشون المكائد! ثم استطرد بعد توقف، أيها

الشاب المسافر أريد أن أقدم إليك هديةً اعترافاً بالجميل. أضع بين يديك قواي التي حُزرتها، وقد

تجددت، وأنعشتها أعوام من العزلة. ماذا ترغب؟ خُبرني بأكثر أمانيك إلحاحاً، وأكثر أحلامك حنوًا، فأنا على استعداد

لتحقيقها.

أخذت أتلعنم، وقد أزعجتني المغامرة، فلم أعر على كلماتي. فثأثأث: سيدي الجني، أنا أسكن جزيرة مانهاتن، وصديقي تعمل

في أرصفة بوردو Bordeaux. نحن بعيدان عن بعض، وليس لدينا ما نغطي به تكاليف السفر، فلا نرى بعضنا إلا قليلًا. نلطف،

سيدي الجني، وابي لنا جسراً فوق المحيط الأطلسي، فنحن نمتلك دراجتين، بإمكاننا أن نضرب موعدًا وسط البحر، ونتجه

نحو بعضنا فوق الرذاذ. أوه! لقاءاتنا الجميلة عند مكان بين جزر الأزور وجزر الباهاماس، مئة متر فوق الماء! وزيادةً في الإقناع،

أضفت: سأجعلك تقتصد، ما دام أول الأعمدة مبنياً جاهزاً عند منارة كوردوان Cordouan، وآخرها عند تمثال الحرية!

### الصمت من

جديد. كان التمثال العملاق يداعب لحيته  
وهو غارق في التفكير. وانتهى إلى القول: أيها الشاب المسافر، أنت  
تفتقر إلى وعي بيئي بشكل خطير. دعنا نرى: كل هذا الركاب من الحديد فوق الماء،  
وكل هذا الإسمنت الذي سيلقى في الحفر البحرية السفلى، إضافة إلى سطح قنطرة طويل، كل  
هذا من أجل دراحتين صغيرتين...؟ بالتأكيد أستطيع بناء الجسر.. إلا أنني سرعان ما سأرى سفينة غرينبيس  
Greenpeace راسية بين أعمدة موقع الأشغال... وسأفاجأ بخضر العالم جميعهم... قادرين على أن يعيدوني إلى  
القارورة... عليك أن تبذل أمنيته، أيها الشاب المسافر... ثم، أضاف بنوع من التوجس: ما الذي تفعله هنا بعيدًا عن  
فئاتك؟

أصبحت بخيبة، بطبيعة الحال، فحاولت أن أبحث عن حل. واصلت بعد إلهام مفاجئ: سيدي الجني، أنا لا أفهم ما تعانيه  
صديقي، وما ترغب فيه أو ما تخشاه، وما تراه. أنا أألم أحيانًا لدموعها وعتابها المبالغت. أنا الذكر الذي تنقصه الحنكة، يأخذني  
اليأس من نفسي، لعجزني عن اختراق مشاعرها الأنثوية. نعم، لتدخل عن هذا الصلب الذي لا يرضي البيئيين، أنا لا أطلب  
إلا الناعم. أتوسل إليك سيدي الجني، اجعل نفسي المجروحة تفهم النفس الأنثوية. لكي تحفف من أحزاني، وتجفف دموع  
ضجري، أرجوك سيدي الجني، أن تنسج من أجلي، حسرا طائزا، من خيوط عنكبوتية، جسرا افتراضيا، روحيا، يضاها في  
خفته خفة دخانك، جسرا موسيقى عذبة بين الجنسين.

ساد صمت ثقيل لا يحدث حتى الأفق. كنت أنا أيضا مثل تمثال أنتظر في شروبه ومن غير حراك. مع اقتراب الغسق تناهى إلى  
سمعي نداء بعيد، بالكاذب يسمع، ضربت من النوتة الشاكية، سمعت الجني يهتمم باحتشام: إذن، هذا الجسر الحديدي  
أو الحجري، عبر البحر، هل تريده ذا طريقين أو أربع طرق؟

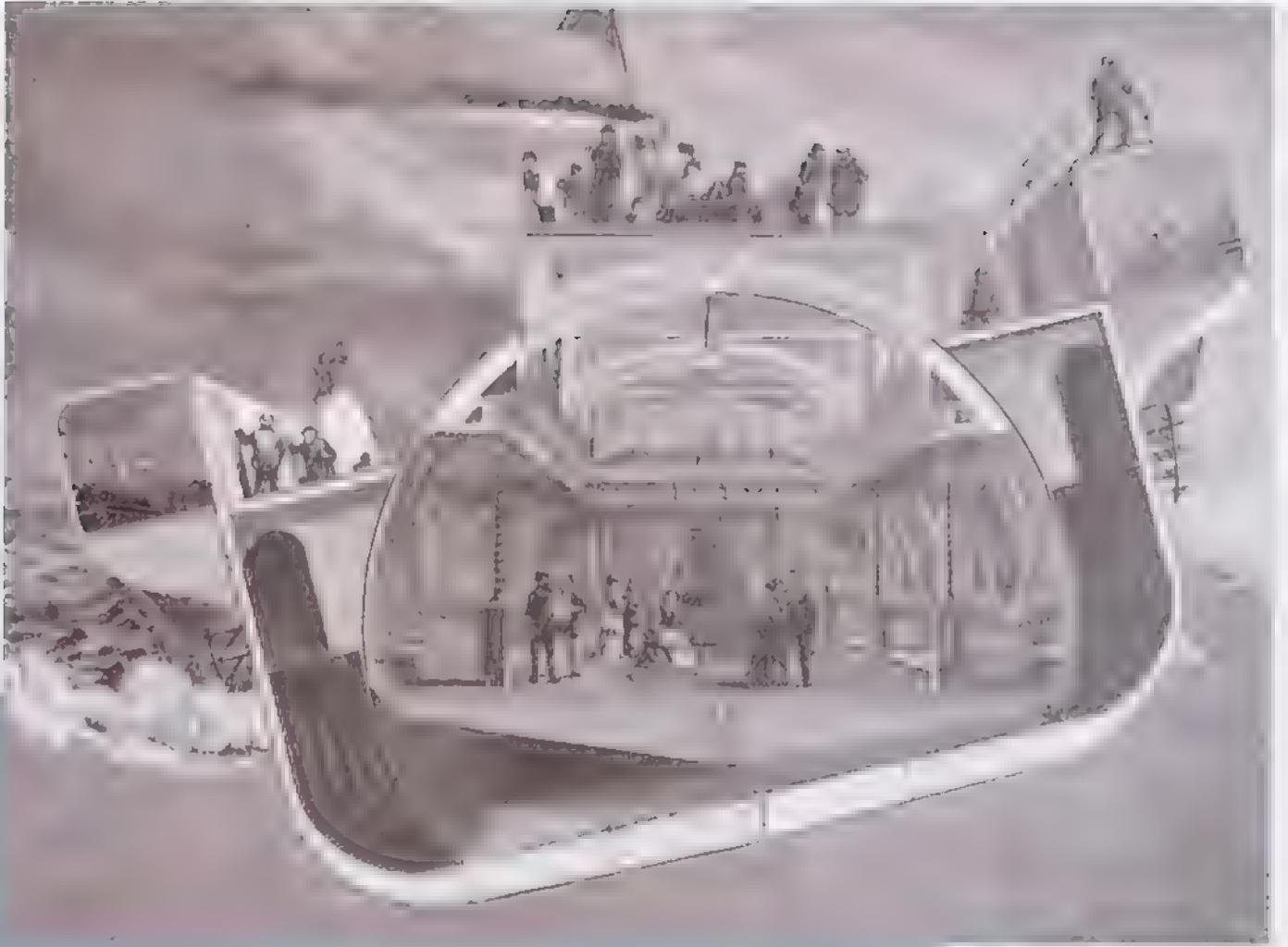
## قارب صغير

من شدة ما أحببت الجسور أبحرت. لأن السفينة تعبر كثيرًا من الجسور. القوارب الصغرى لا تعبر إلا جسزًا واحدًا، أما البواخر، فإنها تعبر أكثر من عشرة، منها المرتفعة، والأساسية والمنحدرة، منها ما يصلح للنزهة، ثم تلك التي تحمل المدافع أو انطلاق الطيران. أبحروا من بوردو إلى فالباريزو Valparaiso ستأكدون من أن جني أحلامي، في درج الصحراء، قد عرف كيف يصنع هذه المعابر العملاقة. لقد بي، بالفعل، مئات الجسور فوق أكثر المياه هيجانًا، ومن غير أن أبحرتم من الحيروند Gironde إلى المحيط الهادي، لن تكفوا عن عبور جسر مشيًا على الأقدام من المؤخرة حتى المقدمة.

هل حدث أن فكرت يوفاء، وأنت تقود سيارتك، أو عندما تكون ساكنًا جالسا لمدة ساعات في الطائرة، بين رواسي Roissy وسان فرانسيسكو، في أنك تعبر نفقًا معدنيًا مكونًا من هيكل سيارتك أو من جسم الطائرة الذي تتمدد بعض أمتاره عند الحركة على مئات أو آلاف الكيلومترات من الطريق؟ تطير أو تسير عبر أنبوب ضخم تتمدد بعض أمتاره عند الحركة على مئات أو آلاف الكيلومترات من الطريق؟ هذا الأنبوب يشكل سفينة بين فرنسا وأمريكا، أو لنقل إنه يتمدد ككتين صيني بواسطة منعرجات الممرات الجبلية. عند وصولك تختفي السفينة أو يتبخر الوحش.

أبحر في المحيط، يتمدد جسر سفينتك بالمثل، إنه ينتفخ ويتمدد من ميناء إلى آخر، يستطيل ليضم ضفة الانطلاق إلى ضفة الوصول. عند الوصول إلى اليابسة، أرى الانتفاخ قد رال. الجسر الذي أوصلي إلى هذا المكان على مسافة شديدة الطول، كم هو صغير يا الهي! أباغتك سيداتي وأنن تضحكن وتهمهمن بالأسشودة الفرنسية القديمة: يا الهي، يا له من رجل، كم هو صغيرا كم هو صغير الراج الذي مدني به أمي! إنه جميل، يا جميلتي، لا تنسي أنه سيأخذك إلى مونوموتابا Monomotapa. أحب أن أسافر بحزًا.

أشبه جسر قاربي الصغير. أحب أن أسافر بحزًا.



منطبات يتم عن جهل صادرة عن ركاب لا  
يحسبون الإبحار أدت مرازما بمهندسي السفن  
استجربه ان ان يخططوا، ثم يجربوا أجهزة ضد  
التمابل، وذلك فوق او تحت الحسور العابرة  
للمحيط لأطسي. حسب تحريفي، أشهد أن  
لتمابل اسانح عن الإبحار يسبب دوازا أقل مما  
يسببه السطوح شبه الثابتة حيث ترفض عناق  
الموجات والارضي. حولي 1875.

إنقاذ الكل، مثل نوح، أم إنقاذ الأساسي: المرأة. من قاعدة البيانات أو القارب الضعيف الذي يحمل شراعه القديس جورج والأميرة التي أنقذها، اختاروا الطريقة الحيوية -العدد أم الجودة- التي من شأنها أن تولد أكبر ذرية. ربما تردد داريونين نفسه في المراهنة. بما أنني فيلسوف، فأنا أختار الطريقة الأولى، وبما أنني ذكر، فأرغب في الثانية.

أنطونيو بيزانو الملقب بـ بيزانيلو، حوالي 1435/1430  
Antonio Pisano, dit Pisanello, vers 1430 /1435.



بعدادل سفينة نوح: تجارة المرنق والمجموعات، محرر السيد، حدائق الحيوانات، حدائق انسانة، المناحف، القواميس، الكبور، المحلات والمحتارات، احراجات، الموسوعات، شبكة لإتربيت، غوغل لكل فوق الجسرا

سفينة نوح، مونيك كرونشاجن، 1972.  
L'Arche de Noé, Monika Cronshagen, 1972.



عشت في البحر، وطاردت أعالي البحار التي ليست أقل قابلية للسكن من أعالي الجبال، أو الحليد أو الصحراء. حارح ذلك، تطل السكنى ممكنة. لكن، في هذه الأعالي اللانسانية غير المصيافة، ينكشف الكوكب. ومع ذلك، فعندما أحرم من البحر، تغدو الأشياء كئيبة على الياسة.

عند نهاية وحيات غدائنا، في البحر، كنا ننتظر الفواكه نلثف، عندما صاح أحدينا، متخليًا عنها: ماذا لو ذهبنا نحو البحر؟ كنا نستعجل مدة تناول الغذاء، لحاجتنا إلى البحر، وعندما نبحر، فإننا بالكاد لا نعادر. كنا أكثر جوفاً وتعطشاً للبحر مما كنا عليه بالنسبة للخبز والنيذ. كنا عشافاً معرمين، متصوفين. كان أفقنا هو البحر. كان عشيقنا هو البحر. كان إلها هو البحر. ومأوانا، هو البحر. طريقنا وحديثنا ومائدتنا، البحر. حينا، البحر. اهتزاز وتمايل ورقص عشاق وعاشقات بإيقاع متنوع. كان رفيقنا هو البحر.

... ولكن كان أيضًا عدونا الذي كنا نحته إلى حد أن غصه كان يبعث فينا الرجفة، البحر المدمر الذي لا ينالي بالأمنا كأته عشيقة قاسية. البحر الذي يمكنه أن يقف فحاة أمام مقدم السفينة مثل جرف صخري مرتفع أو مثل جدار حبل، فينهال مثل تسونامي متحطفا على الكيانات الحية، البحر الذي يرغمك، في بعض الأحيان، على الوقوف متصلبا على جدران المقصورة أو الممر عندما ترتفع أرض السفينة عموديا، البحر المرعب الذي يطارد ليالي الأرق تحت نعيم قرن الصباب، البحر البغيض، زوج النسيم وانه، الذي يقف سلبيا أمام الرياح، البحر الذي يحمل ويأخذ، ويبتلع حيوات، البحر المميت...

... البحر الحي، الحيوي، النشيط، الأم الأولى للأنواع الحية، بحر الأمومة، الناعم، مثل بشرة طفل، من غير تجاعيد ولا تمؤجات، النائم في هدوء، الثدي المزهر، الرحم المثمر، منبع الخصوبة السخي، الرضعة حتى الامتلاء، المليء بالوحوش والعجائب التي تجعلنا أشكالها نتقلب ليلاً في صناديقنا وقد خدشتنا مخالب كوابيس الأعماق، حواء البحر البدائية التي خرجنا من حضنها جميعاً، أعشاباً بحرية ونباتات وحيوانات وبكتيريا وئدييات وزواحف وحيثاً، بل حتى بشراً، منذ مليارات، ثم ملايين السنين...

البحر الذي يدنسه الزعاع، مغتصبو أمهم الأولى La mer (البحر)، هيا بسرعة، لتقم معي ولتبحر أساطيل من القراصنة لضبط هؤلاء المفسدين قتلة أمهم mère، كي نقبض عليهم ونلقي بهم، عراة، في الدهاليز.

... البحر الذي، وا أسفاه، أولته بلادي فرنسا التي تزيتها سواحل فاخرة، ظهرها منذ مدة طويلة... فهل تحتقر أمي أمها؟

البحر امرأة جميلة، نغزٍ منفتح، أمٌ عزيزة، عاشقة حلوة، أختٌ طيبة، فتاة جميلة تفاجئ بأهوائها، عشيقة مهيبة متقلبة، زوجة أب ذات رأسٍ ينبت أفاعي، ساحرةٌ مدهشة، منتجةٌ لرحيق المحبة واليأس. أبكي البحر الذي يفوق جماله جمال كلماتي المفرطة في الإنسانية. فأنسى جمال الحيوانات. سرعان ما ترقى الحياة في البحر إلى العمل الفني، لأن شكى الكوكب غير القابل للسكن تتطلب تحوُّلاً للجسد والروح في استطاعته أن يجعل من الملاح كائناً إلهياً.

أندكر الشفق حيث كنت واقفاً فوق الجسر، وآلة قياس ارتفاع الأجرام في يدي، أنتظر أن تبرز نجمة كي أحذد القياسات. كان يحدث لي أن أغوص في الماء، وأستبدل بنظرتي التنبيهة نظرة البحر نفسها، البحر الذي تتأمل عينه الوحيدة، تلك الحفرة الكروية الخضراء، الغارقة في دموع المرارة، الغياب الأزرق للإله.

على اليابسة، كانت بقية ساعاتي المملة تجد تعويضها الوحيد في الحنين إلى تلك المحبوبة التي كنت أعيش في حضنها، وأناام وأفكر وأقطن. ما زلت أحملها معي مثل حب غارق.



بحرص حراس المارة، ملائكة الساحل، على  
تتبع أخطاء ملاحتنا. غالباً ما يكونون وحيدين،  
يعملون بانتظام على توفير الإنارة عند الغسق،  
كانت لنا معهم علائق نادرة، ما دمنا لم يكن  
لنقتحم صخرتهم المعرولة. كانت أبراجهم  
تتلحف بموجات تكون من الارتفاع بحيث تغطي  
الغانوس. ما زلت أذكر السنة التي عطلها فيها  
البحر. عندما أصبحت الأضواء آلية طردت منها  
ظهور الليل. فكما أن آلات المراقبة عوضت بـ ج.  
ب. س، وكما أن الحساب البحري قد أصبح  
من غير جدوى، فإن حراس المارات يشغلون  
جزءاً من شبابي البحري. وداغا للوغارتمات،  
وداغا للنجوم، وداغا السيد آران دو كرياش، في  
أوبسان، لقاونا في جنة الملاحه.

فوكورا، بحر اليابان.

## جسر حي

بما أن لغتنا لغة فرسان، فهي تحتقر  
الراجل، وتلعن ما لا أهمية له. وبما أنها لا  
تبالي بالعضو الذي فصلنا عن رباعيات الأيدي،  
فهي تجهل بحماقة الميزة الانتقائية لأخمص القدم،  
قوس الجسر الذي يربط بمرونة، وعند المشي، كعب  
القدم بنهاية الأصابع. الراجل الجيد يجعل من أخمص  
قدميه منطقة شبقية. المداعبة المتحركة، الخشنة والناعمة،  
التي يتبادلها ثقل الجسم على قاع الرجل مع العالم، تولد عدة  
إحساسات لذبة متنوعة، حسب ما إذا كنا نطأ، حفاة الأقدام، أو  
بأحذية الجبال، أو النعال أو أحذية الرياضة أو الصنادل، عشياً في فصل  
الربيع - يلامس-، أو نطأ طريقاً بيضاء -نحك-، أو ممزاً ماعز -يداهن-، أو شاطئاً  
-يدغدغ-، أو شعيب جبل -يضم-، أو سجادة شعر -تدغدغ-، أو ممزاً عمودياً من  
الثلج -يحتضن... لنوقف، حياءً، سلسلة الملذات هذه. بفعل التشر خارج المشي، فإن  
الانتشار المتعدد للهيكل العظمي للأقدام يتكيف مع انحناءات إلى حد أننا نستلذ،

مندهبين، زواياه المتعددة. ألم تولد الأرصية غير المستوية لدى بروسـت Proust  
حالات من الوجد بسبب الاختراع الحديث لرصف الطرق؟ لم يمش الغرب الثري  
على أرض ناعمة إلا منذ جيل بروسـت!

هذه الفتنة التي تتولد عن المشي على الأقدام -تحت جوارب الصوف، أنصح  
بالتدليك بالمرهم الدهنية- تُعلمنا رطوبة الأراضي الصالحة للزراعة، والأخاديد  
والحدائق، ومرونة الطرق والمسارات -التي لم أتمتع بها فحسب، وإنما رصفتها  
بالحجارة والرمل، وجعلتها ملساء باستعمال الباربر غرين Barber Green،  
وهو خليط مدروس من الحصى والقطران-، والطين اللزج للمستنقعات الغابوية،  
والرمال السائلة التي ترسب عن الكثبان الصحراوية، ولكن أيضاً اهتزازات الحواجز  
الشبكية وتمايلها، والأثر المرهق على الثلج الطازج، وعذر الجليد في المسارات  
الجوية، وطرق جبال الأنديز Andes المتعالية. ندين بالعالم لجسر: جسر يقوم  
على أعمدة كعب القدم وأصابعه، فيرفع القوس المرن لأخمص القدم.

انحس: قوس طبيعي يحميك. الكعبس  
والأرداف، الظهر والرقبة تُشكّل سطح  
جسر الأعمال الحبوية الناعمة، من الوجه  
حق البطن، تختفي تحت هذا السقف  
ذي العظام الصلبة، وعلى العكس، ومثل  
ماكسي هيربر، المترحلة الألبانية لسنوات  
1930، درب مرونك "القيام بحسر":  
كل شيء ينقلب، الناعم يمر على الصلب،  
والخبا يظهر، والكل يستند على أعمدة  
هشة، أصابع اليد، وأصابع القدم. يرسم  
الجسم كله جسراً كاملاً، لو لم يكن هناك  
رأس. ما العمل برأس الجسر، أي بالنقطة  
العسكرية التي تُشرف على العدو.



قدماي على الأرض، ورأسي في الهواء: يجشجر جسدي  
هذين العنصرين. قدماي دافئتان، أحتفظ ببرودة رأسي: يجشجر  
جسدي هذين المباحين. قدماي جافتان، وعياني تفطران دموغًا:  
يجشجر جسدي حالين. عندي قدما ويدا وثديا وكلينتا يسازا  
ويميتا: سواء أكان يستعمل يده اليمى أم اليسرى، فإن جسدي يجشجر  
هاتين الوجهتين. أظافر القدمين متجهة نحو الأمام مثل السرة، والأرداف  
إلى خلف، جسدي يجشجر المرئي والأعمى، الواضح والأسود، الليل والنهار. جسدي  
يجشجر العالم والمعنى، الأعلى والأسفل، ما دام رأسي في السماء، أنفي قدمي على الأرض.

الجسد يحمل ألف حسر. إنه بيئة حيوية بين الرأس والأقدام: بين الأسفل والأعلى. بين الأمام  
والخلف: نور وظلمات. بين اليسار واليمين: شرق وغرب. بين الداحل والحارج: دافئ وبارد. بين الدهنيات والسوائل:  
رطب وجاف. بين الهيكل العظمي والتنفس: تراب وهواء. توارن حراري، بين الحرارة والبرودة: ماء وبار. بين الجوع والسمية،  
غذاء وهضم: طاقات وأرسال، مواد غذائية وفضلات. بين الإحساسات الحشة والمعنومات اللينة. مادة وبطريات.



بين اللحظة والديمومة: نسيان وذاكرة. بين عدة مستويات من المقادير، صغيرة وفحمة، أزواج من الأساسيات، خلايا، أنسجة، أعضاء، جلد، المريد من رحلات رجال الفضاء. بين أزمية متعددة تولدها ساعات رماني البيولوجي. بين الكراهية والحب: عنف ونشوة... تجسرها الحياة، وتربط بينهما، وتبادل أجزاءهما، وتعقدتهما وتنسج خيوطهما، وتبدل جزئياتهما، وتحول أشكالهما، وتفسح المرور، وترجم، وتوصل إشارتهما، وتندخل في رسائلهما، فتؤولها، وتظهر زماها، وتسمح بمرور بعض الأشياء وتمنع أخرى، تتدخل، تتوسط، توجه وتصون: إنها تحسّر. أحمل نفسي مثل جسر البونوف Pont-Neuf.

ماذا لدينا في الحاضنة-الأم، في القولون وداخل الصدر، وحوالي الفك أو الحجاب الحاجر، كي ينغلق العالم على نفسه على هذا النحو، في عدد لا يحصى من المبادلات التي تتخذ شكل تلاقٍ دماغي رئوي ومعوي، ومن الطيات اللانهائية في الأنسجة والخلايا والكروموسومات والبروتينات وحامض الديوكسيريبونوكلييك، وسلسلة الجينات؟ يصطاد لحمي مواد العالم في هذه الطيات الداخلية المتركمة حيث يختزل ذاته. وهو يربط على هذا النحو أقطابه. سر الحياة يرقد في هذه التجسرات.

قبو الجمجمة، الحاجبان، الشفاه، الإبهامان المتقابلان، العجان... كل منطقة من أجسادنا أقواس. إلا أن هذا القبو المتعلق بأخمص القدمين التي تمر من قوس أصابع الرجل إلى الكعب، يبرر ذلك أكثر من غيره، سواء من أجل القفز، أم الرقص، أم المشي، وسواء قوة عبد الدكور، أم أناقة عبد الإناث. جانبه: صليب بيير، لو كارافاج. Crucifixion de Pierre, Le Caravage, 1601. c-dessous, James Gillray, 1792. أسفله، جيمس جيلري، 1972



أخالي رأيتها عند المرضى المستلقين على أسيرة العبادات، عبر  
 الجاهر الإلكترونية، في بعض المختبرات المتقدمة. يمكنني إذن  
 أن أرسمها بواسطة العلم، لكن، وعلى الخصوص، فأنا أحس  
 بقوة، وأنغى بكون العالم يمرّ عبر بطي، والنور عبر رأسي، وضجيج  
 الداخل عبر جلدي، والطاقة عبر تجويفي الصدري، والفضاء  
 والتوجه والرمز عبر المشي، والجري والقفز والسباحة والتسلق،  
 أحمل الكون في داخلي، أتعرف على وحدات فضائه وزمائه وطاقته  
 وحرارته وكهربائه، ومادته ومعلوماته فيما أحس به في جسدي.  
 هيكل العظمي يشارك التراب، وحرارتي تشارك النار، ورنني تشارك  
 الهواء. عبر طاقتي أنتمي إلى الشمس، أفترس الأحياء وأهضمهم. عبر  
 نعي وضعفي وموتي، أغرق تحت الموج القاصر للأشياء. لست أعرف  
 فحسب أشياء العالم وديمومته، إنما أنا أسحقها أيضًا، وأعجنها،  
 وأطبخها، وأخولها، وأرغب فيها، وأنفسمها، وأعابي منها وأنهد،  
 وأداعبها، وأسخنها، أو لنقل بالأحرى إنني أعرف العالم من خلال  
 هذا العبور المدوخ الذي يفعله في. حيويتي تؤكد معرفتي. أحترق  
 وأكسر وأضحك وأبكي بجسد غني بالأشياء. أحيأ مبادلًا للعالم.

جميع الكائنات الحية الأخرى، من أشجار صفصاف وفهود،  
 وأفاع، تجتبر العالم مثلي، الدافئ والبارد، الشمس والأرض،  
 الطعام، المعلومات والموت، إلا أنني أشعر أن جسدها، الأقل  
 كثافة، والأقل طمًا، وموضع مبادلات أقل، غالبًا ما يقتصر  
 على كونه قنوات غريزية في عيش غذائي. بما أنني وريث ثروة

الجميع رأى الحلزون المزدوجة  
 للحمص النووي أ.د.ن. الشهير  
 مدد واطسوس وكريك عى  
 مسافات منتظمة تربط علائق  
 كيموية المحيطين، وجعلها  
 منماسة مع بعضها في أسط  
 المستويات، تصاعف الحياة من  
 الجسور.

تراكمت عبر ملايين السنين، فأنا أحب فقرها للعالم، يحصل  
 لي أن أنفاسمه معها. لكنني أحت، على الخصوص، التخسير  
 الكوني الذي ورثته، والذي يعمل نداوله الكثيف على استقطاب  
 الكون ونحوه، ومختلف الأنواع، والبشر الآخرين: معه وبفضله  
 وفيه، أوصل في نفسي خلايا وأعصاب، وأشيها وأصاعفها وأربط  
 فيما بينها: الكبير والصغير، الماء والتراب: عنصران أوليان. الأعشاب  
 والوحوش، الثعلب والبلوط: كائنات الأرض الحية. الذكر والأنثى:  
 جنسا النوع الذي أنتمي إليه. الفلاح والملاح: حزف الزمان الذي  
 أنتمي إليه. العالم والشاعر: الثقافات التي عرفها التاريخ.

أحيأ على شكل باقة مثل مبادل متعدد. الكائن الحي يجتبر  
 جميع اتجاهات الفضاء والوحدات الفيزيائية. تعمل الحياة كحسور  
 متعددة، تلاقى ألف تماثل وتماثل، رابطة فيما بين العدد نفسه  
 من السلالم والإيقاعات.

جسر أصحاب الرياضة يبدأ هذه التجسرات ويعلق عليها.





# تقنيات البناء

أثناء تشييد جسر، فوق الحفرة التي ينبغي ملؤها، يظن السطح  
لمدة طويلة مائلًا على الهوة على جانبي كل عمود. تبدو الدعامة كما  
لو أنها تنتصب مزدوجة الرأس. كلما تقدم العمل، ازداد هذا التوتر  
غير المحدود جرأة مغامرة. أما العمود المنتصب والفخور بالجازه،  
فإنه يقف متباهيًا.

فهل يقارنه بالذي بجواره؟ وهل يسعى إلى ملامسته؟

لو أنكم عاينتم إنجاز سطح جسر، وهو يتحرك ببطء، ويتقدم  
من عمود إلى آخر، فإنكم سنعجبون ولا شك، وبصفة أفضل،  
بالسير الضروري والحيوي والشهواني... للحركة. عندما يتخذ هذا  
النمو الأفقي مكانه، بدقة كبيرة، تأخذ قطع الجسر أمكنتها.

أهو انتصاب؟ أم صلاة؟ أم سلم يعقوب؟ طريق أم سبيل إلى السماء؟ آسف لكون الصورة الظلية في الأسفل لا ترفع أكفها. يظهر أنها لا تفهم هذا  
الأثر، الذي يتجاوزها من الفوق. الجسر يأخذنا بعيدًا، ونحن لا نراه. جسر النورماندي، سنة 1994.



رأينا  
ألف لوحة  
رسمها فنانون  
يتمتعون بعيون يقظة  
على رؤوس ريشاتهم. يرسمون  
ما يحسه، أما جسمهم في  
كليته، أو مختلف الأعضاء،  
آخرون يعبرون عن إحساساتهم  
الجمالية بدقة عالية. هنا، وبفعل  
تجريد الخطوط والاتجاهات، يجعلنا  
بول كلي Paul Klee نقرأ، أولاً،  
المفتاح الذكر للسهم، والصليب الأنثى  
الذي يوافقه؟ إلا أننا سرعان ما ندرك  
العمق الحقيقي لما نحسه.

ايروس، بول كلي، 1923  
*Éros, Paul Klee, 1923*

## أوديب امرأة: لقاء ذكوري بامرأة مذكرة

عند جسر الجار Gard الفخم،  
تقابل جسور قروية كانت إدارة روما  
قد أقامت قديماً في الريف الغولي.  
ما زال هناك ما يكفي من البقايا  
لكي نستعملها. قبل بضعة أشهر،  
كنت أسير راجلاً على واحد منها،  
وهو جسر متوسط يمتد، في وسط  
فرنسا على نهر الكروز la Creuse.  
لم تترك طريقه إلا ممراً لشخص  
واحد، بحيث لا يمكن التقاء ما  
في الاتجاه الآخر. تواجهت سيارتان  
في اتجاهين متقابلين. احتد النزاع:  
فمن سيتراجع؟ واجهت المعركة  
أنثى ضد ذكر. ماذا تظنون أنه  
سيحصل؟ لقد انتصرت الأنثى.  
ليس لباقعة من مفتول العضلات،  
ولنما عن طريق إثبات القوة. بما  
أن الأنثى كانت قوية لفظاً وصدراً،  
فقد أرغمت الفتى الطائع على  
التراجع. لم يتعاركا ضرباً، ولكن،  
كما الحال عند الأيل والنشاميانزي،  
يكفي استعراض مظاهر العنف.  
هنا يعوّض التمثيل القتال، كما  
يعوّض حجم الديدن استعمالهما.  
وينحني المحارب القاسي أمام  
الفارسة الشجاعة.

كنت شاهداً على ما يشبه  
المعركة هذه، ففكرت في أوديب  
الذي التقى لايوس Laios وسط  
جسر كما يروي. منع أحدهما الآخر  
من المرور، فانقض الابن على الأب  
كما بين فرويد Freud هذه الحالة  
الاستثنائية -لأن الآباء، عادة،  
يقتلون أبناءهم، ومن الأفضل في  
الحرب. كنت أعتقد أن الجسر رمز  
التصالح والوفاق، كلا. جسر نهر  
التنهدات في البندقية، ما زال يردد  
صدى الحكوم عليهم بالإعدام،  
وجسر الأركول Arcole في إيطاليا  
بهتز بهتافات الجنود مرحبين  
بذاك الذي سيُدعى نابليون. فهل  
حضرْتُ، فوق الجريان الهادي لنهر  
الكروز Creuse شاهداً على نهاية  
عقدة أوديب؟ لكن هنا، لم يقتل  
الابن أمه، كما أنه لم يحتك بها،  
حذراً من ارتكاب فاحشة. ألححت  
على ذكر هذا الخبر السار، وأنا  
مرتاح الضمير.

رسم كارباسيو Carpaccio،  
مخلصاً لجسر الحواري  
Conversation، معاهدة السلام  
بين هيبوليت Hippolyte، ملكة  
أمازون، وثيوسوس Thésée  
رئيس الذكور الذي قاتلهم على جسر  
العريضة الحربية التي تحيلها روبنس  
Rubens. نساء، عند تأملنا  
لهذه اللوحة، إذا ما كان الأمر يتعلق  
بهيجان محاربين، أم بحسن حسي.

معركة الأمازونيّات، روبنس، 1615  
Bataille d'Amazones,  
Rubens, 1615.





ستحتق فرنسا عما قريب بعض بلويز الشاحيات، فلماذا تحلى عن معجلات النقل الثقيل لأقل بلويزا عبر الموانى عن طريق القنات؟ اقصى عطيتك على صفا هذه المياه الراقدة المظلة بالأشجار، هناك سنعرف على الملاحه لنأحين من عصر آخر و لواعدين بالمستقبل  
جسر-قناة برييار، 1897.

## الوقوع

لم أُولد تحت الجسور،  
لكفي كدت. كان نهر الحارون  
Garonne يجري على بعدي  
قليل من والدتي، ما زال  
يحرق شرايبي. تعيش مدينتي  
بين جسرين، أحدهما، وهو  
الأصلي، منح لمولدي العادي

طابقا استثنائيا. يتعلق الأمر بجسر-قناة. ليس هناك إلا جسران اثنان من هذا النوع في فرنسا.  
الجسر الآخر هو مفخرة منطقة بريار Briare على نهر اللوار Loire. تمر القناة فوق الجسر، ويجري  
النهر من تحت أقواسها. يجتاز الماء العذب الماء العذب ويرفعه. كما لو كان الأمر يتم عن طريق  
تحويل دكي وسدود متدرجة، الماء الأول يصدر عن الثاني، والبنيت تتركب الأم أو العكس. هنا تقلب  
التقنية أو الثقافة الطبيعية. ولدت إذن غير بعيد عن هذا القلب. فهل أعاني من جراء هذا الخلل؟ هل

تمنعت بشدة بهذا التحول،  
هذا الحوار: من يدري؟ لكنني  
أدين لهذه الصدفة بشغفي  
بالجسور.

أحبها منذ الولادة حبا  
جينثا، حب محارم.

## يسار، يمين، شفاء

أكتب هذا الكتاب، لأنني أريد أن  
أعبر جسراً آخر قبل وفاتي.

في طفولتي المبكرة، عبرته بمعنى ما.  
وضع لي المعلم القلم والريشة والطباشير  
في اليد الأخرى كي يرغمي أن أحول خريشات  
خرقاء إلى كتابة مستقيمة. كان ينبغي التميز  
مباشرة، ومراعاة القانون. عندما كان عمري يناهز  
سبع سنوات، اهتز العالم كله من حولي. لم يسبق  
أن شوهد مهاجم في كرة السلة في مثل مهارتي.

لم أنفك أهني نفسي على تميزي هذا، على هذا التحول  
وعلى قدرتي على استخدام اليدين معاً، على هذا التنوع، هذا  
الزج الهادئ بين صفتين، وعلى قطعة الدومينو البيضاء لجسري.

بما أنني كنت أنتقل بكل حذية من كتف إلى آخر، عبر جسر  
الوريد الكتفي، ومن كاحل إلى آخر، عبر جسر الوركين، فإن العالم  
كله كان يمكن أن يدعى إلى صيافة لا عداوة نعكر صفوها؛ لأول مرة  
كان اليمين على وفاق مع اليسار. تولدت عن هذا التجسير الجسدي  
أشكال من التواصل بلغت حد الكمال. إلا أنني، في نهاية الأمر، كنت قد  
غيّرت من شاطئي ثقافياً ونظرياً ومهنياً. لم أنس أبداً درساً كان من الإلحاح  
إلى حد أنه جعل مني عبداً مشدوداً إلى محبرة الكتابة منذ الفجر حتى الظهر.  
فهل أكتب كي أبرر كوني هاجرث نحو أرض غريبة، غرست فيها كرمي وبنيت  
فيها بيتي، واضطرت أن أترجم ما أريد قوله إلى لغة غامضة؟ عادة ما نحرص على  
احترام القانون بصفة دقيقة خارج بيتنا، أما في البيت، فإننا نشعر بأننا أكثر ارتياحاً  
لخرقه. خضعت إذن، بتردد كبير، لمئة قاعدة، فيها الثقيل والخفيف، الصريح والمضمّر،  
فيها صرامة ونزاهة في العمق، نظم وموسيقى في الشكل. كنت أستوعب كل هذا إلى حد  
أن أخلط به نصفي الوثوقي. لطالما رغبت -على الأقل فيما يخصني أنا، وليس ما يهم الآخرين  
الذين لن يتحفلوا بذلك- في أن أحافظ على القانون، وأجسد الصدق والاستقامة الأخلاقية،  
والمروءة، حتى إزاء أولئك الذين يخدعونني، إنه السخاء من دون مقابل. الاستقامة الدائمة.

والحال أنني الآن، وقد شُخّنت كجندئ هرم، أحس بالألم في جانبي الأيمن. قاعدة العنق، وفقراته،  
وحزام الكتف، وعظمه، وعضلات الصدر، وكل كتلة هذا الجانب تتضرع ألاماً. أعاني من رأس جسري.  
الطائر الجارح للقانون يمعي من أن أستدير إلى حد أنني، وبإلحاح، لا أستمتع إلا بنصف العالم. أريد  
أن أثبذل، أريد أن أعود إلى ذاتي، لم أعد أطيق ألم جانبي الأيمن.

أيها الطائر الجارح، دعني وشأني. أطلب منك على الأقل الشهور أو الأعوام التي تفصلني عن الموت. لقد التهمت واحداً من جانبي طيلة حياتي، فاترك لي وقت احتضاري. لأنني أتعرف، في هذه المعاناة، على شبحوذة العمل، والتجاعيد التي يصعب القضاء عليها، والتي يخلّفها العمل المكور، والشقاء الذي يترتب على السكون المنحني، وحفاف الانتباه الثابت. أرى هذا الوحش اليميني جاثقاً عليّ، وعدم تماثله الصارخ، وإلحاحه القاتل، وحقيقته الصلبة التي لا تُحتمل. أرغب في ألا أسمح لنصف ميشيل بأن يُملي قانوناً بمنزل هذه الصرامة على نصفه الآخر. أيها النسر، فكّ عني مخالبك، أيها الصقر انزع مي برائتك، لُفّا الحبل حول رقبي، واتركاني أكتب ما أرغب في كتابته منذ خمسين سنة، وما لم تسمح لي بكتابته قط. أرغب في أن أعيش متحرراً من القانون، حتى ولو أنني لم أجد أكثر من حقوقه عدالة. أريد أن أعبر من جديد الجسر متخلياً، أي نعم متخلياً، عن هذا الأفضل. أعرف جيداً أنني لم أكتب بعد، وأرغب أن أكتب أخيراً. أريد أن أرغب وأبكي وأصبح باليد اليسرى.

التنين ذو المخالب، الطائر الجارح، العقاب، النسر، الوحش اليميني الذي يخول دون استدارتي، كلهم يحرشون مدخل هذا الجسر القديم التي كنت أعبره، في سن السابعة، تحت سوط معلمي. أراهم متجمهرين أمام مكان تسديد المكوس، مكشرين عند مركز الجمارك، نصفهم وحش، ونصفهم أنا. كانوا يمنعوني من العودة. أتعرفهم كتناسخ لحيوان واحدٍ يمكنني أن أسقيه باسمه: المعرفة المطلقة. إنها سامية وغبية، وهي ترعى النفوس الصالحة، والعقول المستقيمة والعمال الشرفاء، تحميهم وترعبيهم. تمنع هؤلاء الفضلاء من أن يعبروا في الاتجاه الخطأ. لا خطأ ولا خطيئة، لا كسل ولا رعونة. إنها شيطان كل حقيقة، بما فيها نسبيتها وعدم ضرورتها، لذا تفرض عليّ، فضلاً عن ذلك، أن أتخلّى في سيرة عن كل أمل في أن أرى يوماً ما الشاطئ اليساري القديم.

ورغم ذلك، فأنا أرغب، يائساً، أن ينقلب العالم بأسره، أريد أن أعبر جسر جسدي، وأن أغزو نصف الآخر، نصف الآخرين، نصف الأشياء. أريد أن أسترّج توجّهي القديم، وأن أتقلّ عكس كتفي ووركي، أريد أن أطوي جذعي وأطرافي وصفحاتي مثل إصبع عملاق، أريد أن أتحوّل روخاً وحسداً.

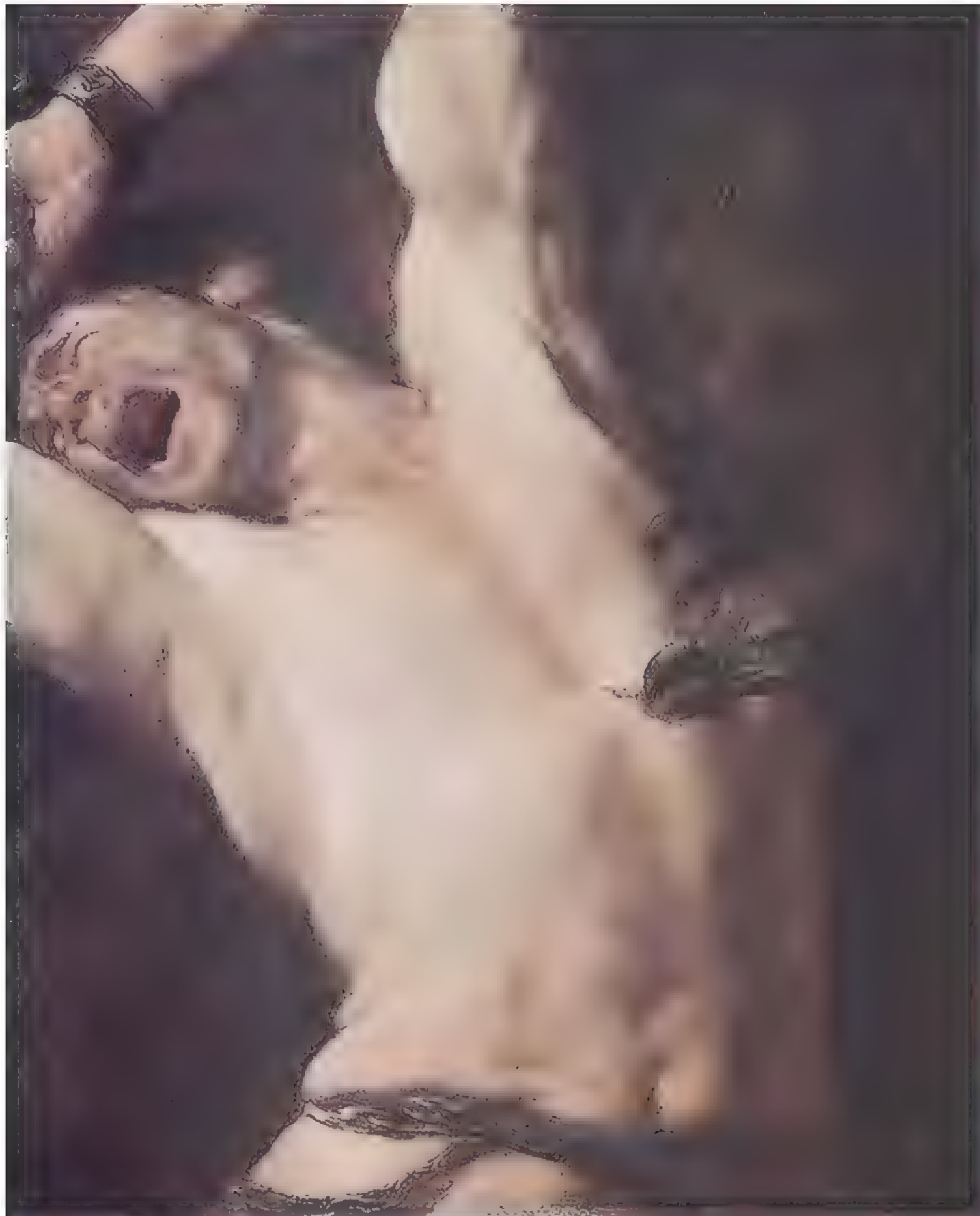
وماذا عن اليمين وقانون الحقوق؟ وهل ستتخلّى عفا كنت تحبّه؟ هل ستقتل أفضل القيم؟ لتذهب إلى الجحيم! أريد أن أكتب بحرية ما أرغب في كتابته، ما لم أكتبه قط.

بما أن نسر الأسطورة قد التهم كبد  
بروميثيوس، فهذا يدلّ على أن القدماء  
كانوا يعلمون أنه يعيد بناء ذاته. ولكن ألم  
يحظّم منقار الطائر الكاسر بالأولى عضو  
البطل، المتهم بسرقة نار الرغبة من الآلهة؟

عذاب بروميثيوس، للعبان الإيطالي  
جيوشينو أسريتو.

Gioacchino Assereto - The  
Torture of Prometheus

Created: between 1620 and  
1648



جعلني أعاني، فأصحت أياس من نفسي مد سنين.

رعبت في أن أحفك محبة وفوه انتطرت بلا حدوى أن تبادلني شيئاً من اليسر، من غير أن تؤاخذني على ما صدر مي من أقول وأفعال، وحتى أكثر مقاصد صممي رهافة.

كان عليّ قطع الجسور حفاظاً على بقائي.

إلا أنني لا أعرف كيف أتصرف.

بمكنت من أن أتي، إلا أنني لا أعرف التوقف. بمكنت من أن أخلق الروابط، إلا أنني لا أستطيع فكها. أحبك، وبما أنني غير محبوب، فلا يمكنني أن ألعى حي.

هل يمكنني أن أستجمع قواي ذات يوم؟

هل يمكن أن نقول عن هذا إنه جرح؟

لم يعد لي أمل في ذلك. لا أستطيع قطع الجسور، وأنت مزقت جسري.

أكيد أنك ستجد دومًا أفضل مني، هنا أو بعيدًا.  
إذا لم يكن في استطاعة أحد أن يظن أنه من غير منافس  
فمن يا ترى يكره أن يصبح فريدًا من نوعه في نظر شخص ما؟  
فقدت هذا الحلم.

أقول في نفسي إذن ينبغي قطع الجسر: هذا ما فعلت.

بروي

صاحبي عالم النفس: الجميع  
عرف ألم الهجران، أحبت امرأة محبوبة حبيبًا  
آخر. تهجرك من أجله، هو الأكثر شبابًا وجمالًا، فتسقط أنت  
في الهاوية. كانت فابيان، وعمرها ست عشرة سنة، تتبادل الرسائل عبر  
الشبكة العنكبوتية، مع المدعوة إيما التي كانت قد التقتها في موقع متخصص  
في بيع الأثاث العتيق. دام الحوار على الشاشة ما يكفي من الوقت بحيث وقعتا  
في حب بعضهما.

ذات يوم، لم تردّ إيما على نداءات فابيان، سوى برسالة مضمرة لم يكن لها داع، تدل  
على القطيعة. سقطت فابيان ضحية انهيار عصبي خطير دفعها لزيارتي، ودام الأمر مدة طويلة  
مما جعلني أقلق لحالها.

واصل صاحبي: لاحظ أن لا واحدة عرفت الأخرى، أعني بلحمها وعظمها، لم تريا قط  
بعضهما، ولا تلامستا. لم تمتد هذه العلاقة أي جسر بينهما، اللهم إلا جسر كتابة لم تكن  
لتضمن لأية واحدة منهما لا حقيقة الأخرى، ولا عبوانها الحقيقي، ولا سنّها ولا جنسها.  
نعم، لقد وقعت فابيان في حب ملاك.

إن النفس البشرية، عندما تنتج واقعًا من أجل قضية افتراضية، فهي تبني حسرًا  
بين هذا العالم وعالم آخر. بما أن المرض واقعيّ بصفة مؤلمة، فإنه يجعل هذا  
العالم الآخر يظهر شبيهًا بالواقع في واقعته. نحن نحب في الافتراضي  
ونعيش ونوجد فيه واقعًا مثلما في الواقع الفعلي. هل يمكننا  
أن نقبس، منذ فجر الحب الإنساني نسبة الافتراضي  
في هذا الحب؟ هل يمكننا أن نعرف كم  
فيه ما يفضل الواقعي؟

## جسر حب ملائكي

في دير سان ماركو بفلورنسا يرحب الأخ أنجيليك بالرائر بإعلان مريح، استعيد في قصة الملائكة، فاده شيئًا فشيئًا نحو بشوة المردوس، في مرح مليء  
بالرهور، حيث تشكّل الأرواح بأذرعها حُسور دائرة  
يوم القيامة، فرا أنجليكو، 1431.

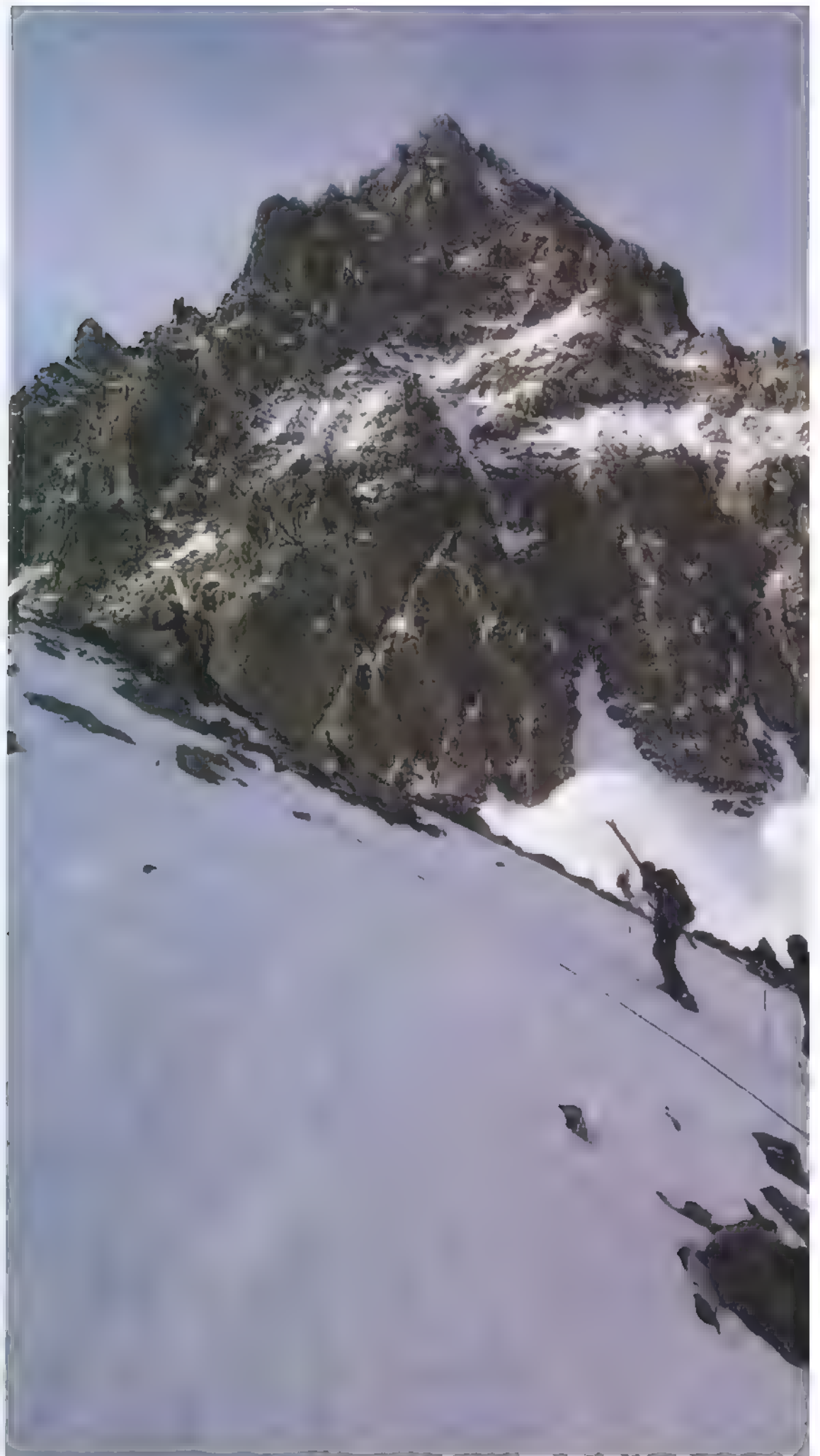
Le Jugement dernier, Fra Angelico, 1431.



# ثلاثة جسور، قمة

بلغنا،  
نحن  
الثلاثة، قمة  
جبل فيزو Viso  
حوالي الساعة العاشرة  
صباحاً. تسلقنا، سعداء،  
التلال الغربية الأنيفة، دون  
صعوبات كبرى. كان الطقس جميلاً، كنا  
نُخرج مأكولاتنا من حقائبنا، عندما بدأ الحبل  
الثاني القادم من الطريق العادي الطويل، لكنه  
سهل. واجهنا دليل وزبونه، استدعانا هذا لشرب  
نخبه. كان يبدو أكثر سعادة منا.

قال لنا: لنحتف ببعثي، فقد بُعثت من بين الأموات.  
قلت له ضاحكاً، ليس كذلك، بُعثت فقط من بين  
موتى الوادي أو ملجأ كينتينو سيل Quintino  
Selia. فآلخ، وأردف: ظننت أن قلبي كان سيتوقف،  
كان هذا السياق اختباراً بالنسبة لي، لأن جزأها كان  
قد جشترني فيما سبق ثلاث مرات. على مرتفع أربعة  
آلاف متر، شربنا على نخب مقاومة الجسور.



في اللاجئ، حول جبل  
فيزو، أو على جنبائه، نسمع  
مرشدين يتكلمون اللغة  
الجميلة بهدمونت. وبعيداً  
تترددون: هل تسمعون  
فرنسية أم إيطالية؟ واحدة  
أم أخرى؟ واحدة وأخرى؟  
لا واحدة ولا الأخرى. هناك  
لغات جسور.

## بون-ليفيك Pont-l'évêque

أنت كاهن إلى الأبد in sacerdos  
aeternum بهذه الكلمات التي يقال في  
القرآن المقدس في العبادة الكاثوليكية،  
يدخل نائب الكاهن الكهوب إلى الأبد. هل  
نعلم أن الشيء نفسه يتم في البحر؟ لا أعرف  
ملاحة قدماء إن كنت ملاخا، فأبك ستبقى  
كذلك، ولا حول لك ولا قوة.

1956، ما زال بليس سروالا محتررا



ولدت في بلدة متوحشة لا سيد فيها ولا أحبان. كان آباي الفلاحون يخططون بعقريّة لإقامة فردوسي تتوفّر فيه الخضروات والفواكه، فانتزعوا الكروم من سموح التلال كي يغرسوا أشجار الخوخ. لم تكن عندهم تربية للمواشي ولا حليب، اللهم إلا نوع لذيد من عنب المائدة الذي أصبح اليوم يعرض في الأسواق بعناقيده الكبيرة وحبائه الضخمة ذات القشرة التي تكفي صلابتها لتحمل الرحلات الطويلة. بما أنني ولدت في هذه الجزيرة، ومثلها نادر في فرنسا، كان عليّ أن أسافر كي ألتقي ملذات الجمع بين جبن الروكفور Roquefort ونبيذ الغراف graves.

عندما كنت ملاحاً مبتدئاً، لم أكن أترك لأحد أن يذهب إلى سوق تولون Toulon، صباح يوم الأحد حين لا أكون قد خططت لولوج البحر الجميل. بعد أن لامست الوردة الحمراء من أجل أن يحالفني الحظ، اقترحت عليّ إحدى البائعات البارعات اليقظات أن أتمزّن على تلك اللذات، إضافة إلى لذة الحب. اقتصرنا على الأجبان. كانت تبيع لي منها ثلاثة أنواع مختلفة كل أسبوع، بحيث إن تربيتي في هذا المجال كانت قد تحسنت في نهاية العام. في يوم غفران، وضعت في يدي مريغاً لجبن بون-ليفيك. أدى بي الحظ فيما بعد أن أقيم في أوفيرني Auvergne حيث كانت تنتظرنني الاكتشافات الرائعة لأجبان الكانتال cantal، وسان-ليكتير Saint-nectaire وفورمدامبير.

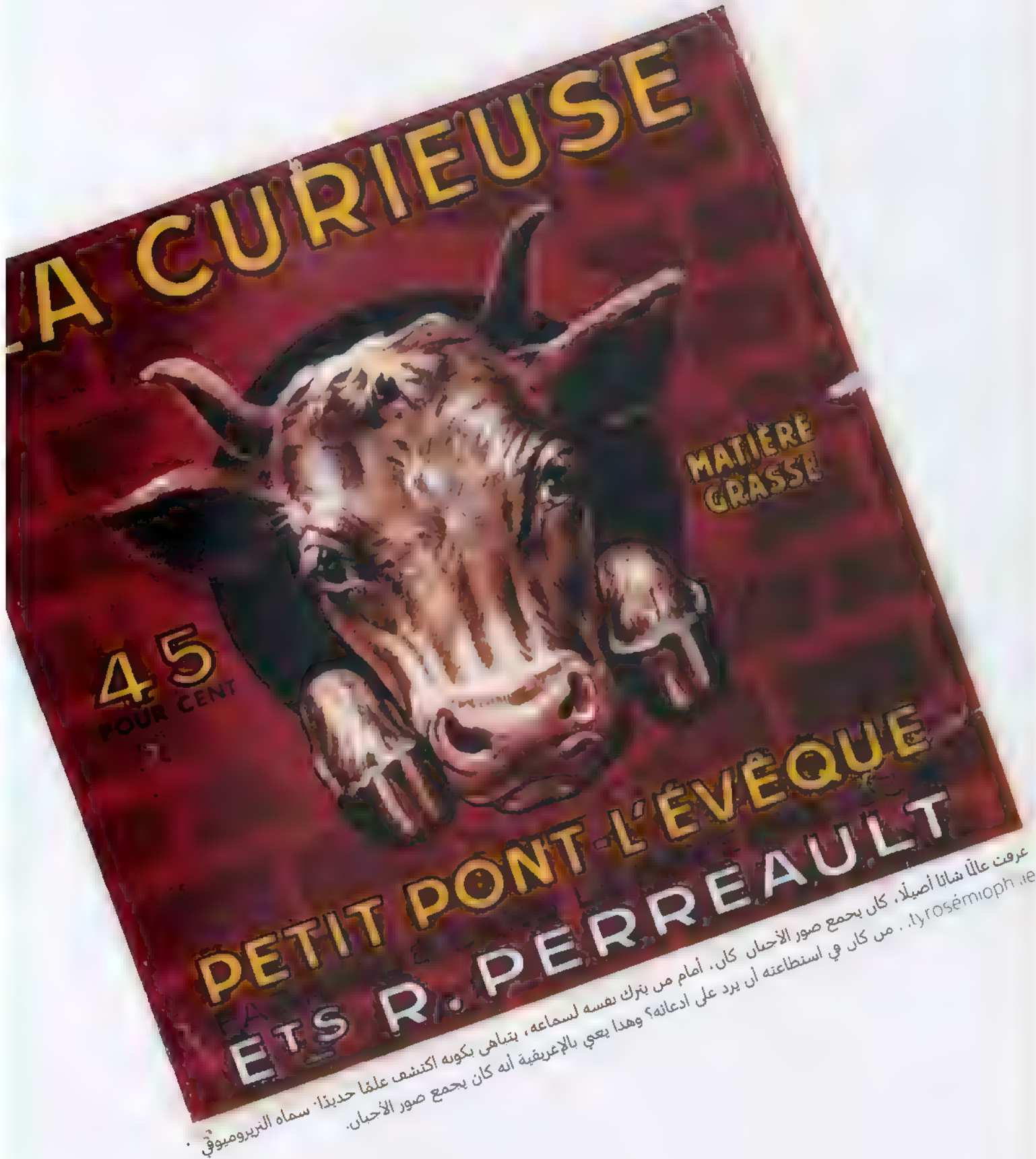
سعت التشريعات الأوروبية، المتشددة والسنابلية مثل كثير من الإدارات، وقد أخذها الذعر من جبهة الجراثيم، إلى أن ثلعي تعدد أنواع الأجبان في فرنسا كي تختزلها في معجون صناعي فريد من نوعه ولرج، من دون رائحة ولا طعم. ومن جهتها حاولت الرأسمالية الأمريكية، المتوحشة والمفاداة إلى داروينية اجتماعية، أن تلغي في ميدان التجارة العالمية للحمور، التسميات التي تحيل إلى المنشأ المحلي، كي تختزل تعدد مزيج الحام عندنا إلى مجرد إحالات إلى أصناف العنب. أيها الآباء، تشبثوا بالبقاء في اليسار، أيها الآباء، تشبثوا بالبقاء في اليمين.

الاختزال المفاجئ نفسه تمّ في فرنسا بالنسبة لزيوت الزيتون عندنا. ما زلت أذكر الزيوت المتنوعة، المصفّاة ومتعددة الطعوم، حيث كنا نتميز فيها بين خمسة عشر نوعاً صادرة عن منطقة البروفانس Provence. يحكي الكاتب جان جيونو Jean Giono كيف كانت تعمل المطاحن الحمس أو الست في مانوسك Manosque حيث لم يكن يخطر فقط في بال أقربائه أن يتزوّدوا بعيداً عن الجوار أو عن ذوقهم. فجأة، وتحت ضغط هذه اليد الخفية للسوق التي يبدو لي أنها لا تصنع إلا المعجزات، لاحظت في شباني ظهور قبينة زيت موحدة تُخلّد علامتها اسم الهمجي الذي احتكر السيادة على بساتين الزيتون.

بالمناسبة، هل تعلمون من أين أتت كلمة العلامة التجارية *marque*؟ من الفعل *marcher*. العلامة تحفظ أثر الحطو. في وقت مبكر من عهدنا كانت عاهرات الإسكندرية قد توصلن إلى نحت الأحرف الأولى من أسمائهن بالقلوب في قاع أحذيتهن، وهكذا كنّ يتحولن على الشاطئ، تاركات علامات خطواتهن على الرمال، فكانت تدل على الاتجاه الذي ينبغي لزيائتهن المحتملين أن يتبعوه، عارفين في الوقت ذاته أنّ من أولئك النساء سيواجهون. جميع مروجي العلامات إذن هم أبناء هؤلاء العاهرات.

إبان سنوات الستينيات رأيت الخطر نفسه يحدث بأجبان إقليم الأوفيرني *Auvergne*. كانت الخمرانات التي ترقد فيها أجبان الفورم أو السانكتير تقفل أبوابها واحدة بعد الأخرى، في الوقت الذي كان فيه عجينة مطبوخة شنيع، يحمل علامة تجارية مشهورة، يغزو ألواح الإعلانات. سررت لمشاهدة الانتفاضة الشعبية: سيستعيد جبن الساليرس *salers* أمجاده.

أيها القارئ، أنت تعرف ذلك، وتراه، إن ثقافات معينة في طريقها إلى الموت. ثقافة الكتاب، واللغة والذوق الفرنسي الرفيع، تلك الثقافة التي طالما ارتبطت بالألوان والأساليب والموسيقى والفساتين الأنيقة والأطباق اللذيذة. النجدة! انظر إلى مداخل مدينتك كي تعرف، باشمئزاز، لأي جهل فظيع تُخضع أكثر الطبقات السائدة التي عرفتها فرنسا همجية البلد اليوم. الهمجية ذاتها تهدد أنواع النبيذ والأجبان، تلك الأمور التي تبدأ عندها الثقافة بلا منازع. عندما تقرأ بعض هذه الجمل أيها الصديق، ينبغي عليك أن تعجل باقتناء كتاب مؤلف جيد، مع قطعة من جبن البري دو بري *de brie*، ومعزوفة لبولانك *Poulenc*، وقبينة باردة من نبيذ مبدوك تذوقها على عجل مع جبن منطقة بون-ليفيك.





## ساعات مقطوعة الجسور

عندما كنا، في عصور ما  
قبل التاريخ نعبّر المحيط الأطلسي  
على متن الباخرة من الهافر Havre إلى  
نيويورك مروزا بساوثامبتون Southampton،  
كنا نأخذ الوقت الكافي كي نرقص بكيفية جنونية. في  
المساء الأول لرحلتي الأولى، عندما دقت الساعة الثانية عشرة  
ليلاً، توجهت نحو مشاركة كي أقترح عليها رقصة فالس، أو التانغو أو  
الباسودوبلي، لا أذكر أيّ هذه الثلاثة: قلت لها، انظري إلى الساعة، هل تريد  
أن نسقى مغاً دقيقتين أو ثلاثاً؟ أخفيت عنها الحقيقة، ذلك أن عقارب الساعة تتوقف  
عند هذه اللحظة، ساعة كل يوم، لكي تتدارك التفاوت التي لا تدركه أحسادنا. وفيت بعهدي  
للحساء ودامت رقصتنا للتانغو ثلاثاً وستين دقيقة نلذذها جسداً.

نحن نظير اليوم من  
 تاهيتي إلى سنغافورة، أو  
 من باريس إلى طوكيو في اثني  
 عشرة أو ثلاث عشرة ساعة.  
 بينما يعيش جهازنا العضوي في  
 زمان ومكان، فنحن نجتر المكان  
 بنوع من السلطة القاسية، وذلك  
 بأن نقطع جسور الزمان. هناك عشرات  
 من الساعات المخبأة في أعضائنا وأنسجتنا  
 وخلايانا وبروتيناتنا أيضًا، تفقد صوابها داخل  
 جسمنا. بما أن الدوخة تنتابها، فهي تستغرق  
 أيامًا عديدة كي تدارك ونيرة تزامنها. لا يمكننا أن  
 نطلب من جوقنا الزماني-البيولوجي أن يضبط السرعة  
 ذاتها آلاته الموسيقية.

غاب عن المفكرين الكبار ممن تأملوا في مسألة  
 الزمان، نيوتن Newton وأينشتاين Einstein أو برغسون  
 Bergson، أن يمتطوا مثلنا طائرات سريعة كي يعانون بشدة  
 من تفاوت التوقيت. لو أن كانت Kant قد مرّ بهذه المعاناة، ما  
 كان له أن يقع في خطأ القول بأن الزمان يحسب مثل سلسلة  
 الأعداد، كما أنه ما كان لبرغسون أن يقول بالديمومة المستمرة.  
 يجتر جسمنا كثيرًا من الساعات التي يقيس تنوعها عددًا من  
 الأزمنة المختلفة إلى حدّ أننا لا نعرف بعدّ كيف يتصرف. في هذا  
 الامتداد الزماني-المكاني لجسدنا، ينبغي أن يمدد التحام مفاجئ  
 لفرشة المكان بعض الخيوط حول فرشة الزمان لكي يحدد نقطة  
 تمزقهما. هذا الكسر يسبب ألمًا إلى حدّ أن أيّ نظرية تصدر عن  
 هؤلاء العباقرة الذين لم يتعلموا شيئًا على حسابهم، بإمكانها  
 أن تتنبأ به، أو أن يستشعروا وجوده. فنحن لا نعيش منغمسين  
 في مكان وزمان كملاح في سفينته أو حرمة في طائرة، فأليافنا  
 تربطنا بهما. ونحن نترعهما.

مصر بين أحمل ما  
 افتقديه، أضغ العبور  
 في القوارب حيث كانت  
 الروابط الاجتماعية تعرف  
 بعض الراحة الوجيزة.  
 أحس إلى ثقافة يكتشف  
 فيها العابرون المسرات في  
 هذه الأماكن المعرولة التي  
 يتراحمون فيها، حسوزا  
 على حسوز: على متن  
 بروفانس في القرن التاسع  
 عشر، ثمانية جسور من  
 العقد والأنساب نهيم  
 بوقاحة، حيث يعرق  
 السائقون الدبر يرودون  
 المحركات البخارية بالفحم.

# LE CIEL



مهما بلغت قنطرة القوس  
الركري علواً، فهي لا يمكن  
أن تصل إلى حيث يخلق  
قوس قزح والطائرات. يرسم  
جان غروني قوس الحصوص  
الهوائية الأولى بين باريس  
وسيوبيورك عمود في برج  
إيفل وآخر في تمثال الحرية.  
القنطرة الصلبة الثابتة بين  
الشاطنين تتحول إلى رحلات  
تزداد سرعة، رابطة بين هذه  
النقطة من العالم وأخرى. لا  
ننفيك نجعل جسوراً ناعمة  
ومرنعة.

صديق السماء، جان غروني،  
1930.



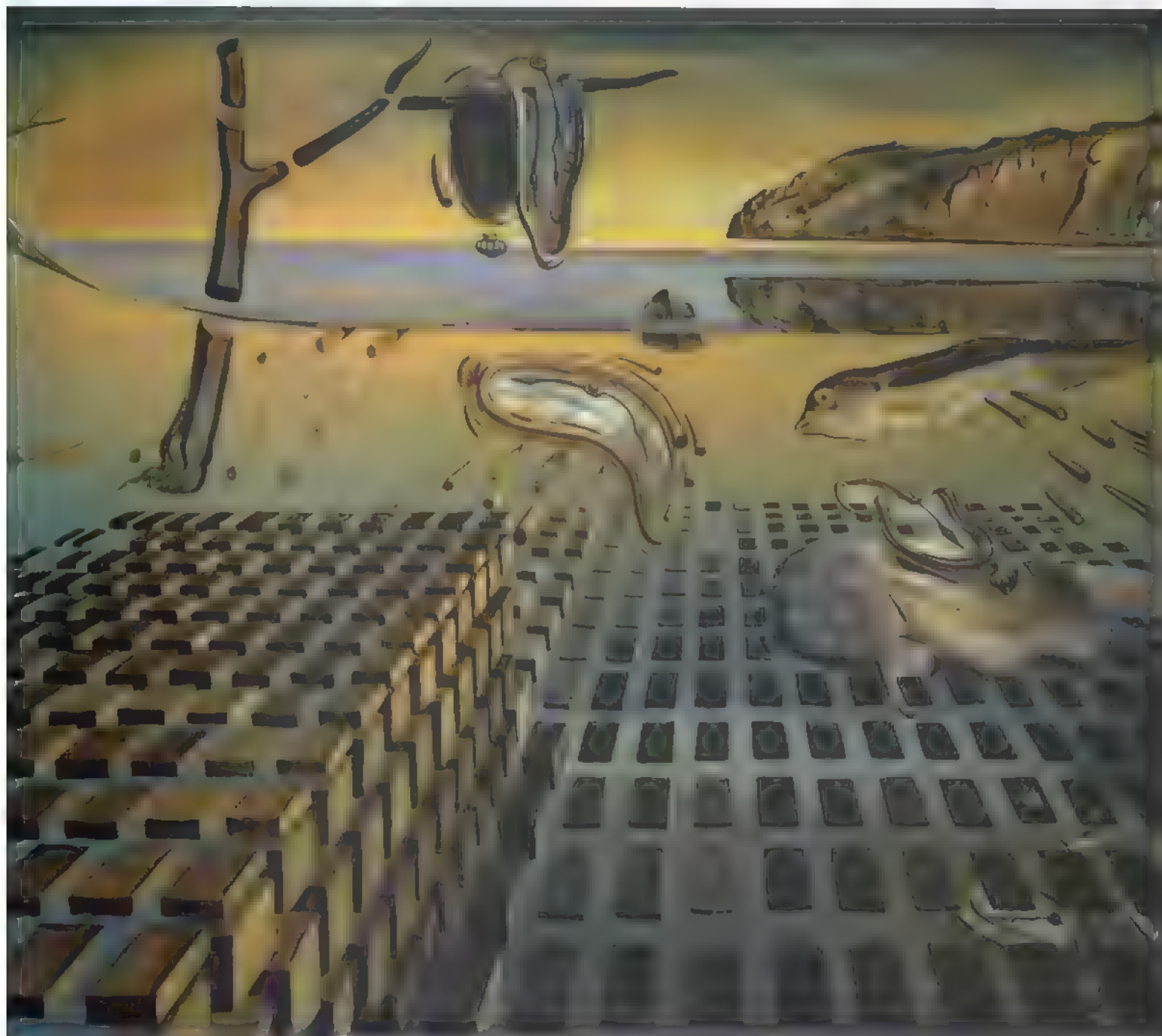
لما عدت أمس من سان فرانسيسكو،  
كتبت هذه السطور عند الثانية صباحاً، بعد  
أن استبدّ بي الأرق، فكنت شاردًا غضبانً أكثر مما كنت  
متيقظًا، كانت مفاصلي وهيكل العظمي يؤلمني، وعضلاتي موتورة،  
كانت بي شبه حالة غثيان، وكان ذهني منزعجًا مثل معدتي، هضمي  
وفكري معطلان، كنت أعلم أنني سأنظر إلى ضيفي بعد الظهيرة مثل شبح،  
وأنني سأتمتع أمامه أربع جمل جوفاء. هذا الغص العام ينحلّ إلى وظائف جزئية  
مضطربة، كل واحدة منها يصيبها الحلل في الوقت نفسه الذي يصيب ساعتها. في  
الحالة العادية، كل هذه الوظائف تتزامن في مركز لا يعلم أحد مكانه وفي عقدة نشك في  
وجودها. فإذا ما تفككت خيوطها المنفردة، وفُكَّت عقدها، فإنها تضطرب أو تختلط من غير  
قائد جوق، فيأخذ كل منها وقته. وتعزف كل آلة لوحدها مقطوعتها. فتترك السيمفونية المكان  
للضوضاء الخلفية. عندما يتخلى عن العضو، فإنه يأخذ رخصته. أعالي من التشتت المزمّن لوظائفي،  
بما أن أعضائي متفرقة، فإنها تتشتت في ديمومة متعدّدة قوصوبة من غير انسجام. أجرب هنا كوننا  
نعيش حقًا ديمومةً متعددة الأزمنة. فما نعتبره وحدة زمانية موحّدة للعضوية، يشمل عددًا وافزًا من  
الإيقاعات، بل ومن الأزمنة المختلفة. وفعلاً، لماذا نتظم الديمومة نفسها هذا الجزئي،  
المعرّق في الصغر، وذاك العضو العملاق؟ أمام تعدد الأزمنة هذا، من الطبيعي  
أن توجد فينا جسور تعبرها كلها وتتزامن فيها. أما التفاوت في التوقيت، فهو  
يشنت الجوق، ويفكّ العقد، ويفرق الجمع، ويقطع الجسور.

كم من الوقت نصّبعه عندما نريد أن نربحه؟ كان عصرًا سعيدًا، عصر  
البواخر، ذاك الذي كنا نربح فيه الوقت كلما ضيعناه، فترقص رقصات  
الفالس والتانغو على الجزء المخصّص للثّره في شطح السفينة.

الفن يتقدم العلم في بعض الأحيان. لا يمر الزمان مثل الأعداد: كانط على خطأ. هل كان  
بحسب الزمن باستعمال ساعة نحاس، هندسية؟ كلا، الزمن مضطرب، إنه يمر ويرشح،  
متقطعًا، متقلبًا مثل سهل أو كتيبًا مثل بركة ماء. يمزج بين ألف إيقاع ووزن. لذا فإن  
عناصره فلما تصطف على خط واحد مثل عناصر الجسم الصلب، بل إنها تنزلق فوق  
بعضها البعض، بفوضى كجزينات سائل. يرى سالقادر دالي Salvador Dalí الأمور من  
الوجهة الصحيحة: إن ذاكرته المفككة تُحتسب على ساعات لرجة

سالقادر دالي، تفكك استمرار اذاكرة.

Désintégration de la persistance de la mémoire, Salvador Dalí, 1952-1954.



# كيف ننتقل من الكبير إلى الصغير؟

إنّ  
الحي الذي  
حلمت به في الصحراء  
موجود، لقد التقيته. كان أكثر قوة من  
جني ألف ليلة وليلة، في صحرائي الواقعية والخيالية،  
هو يعرف، ويُقدر على بناء جسر أكثر ضخامة من تلك الجسور التي  
تربط جزيرة مانهاتن بأرصفتها بورو، أو التي تربط خشونة الذكر بقلب أنثى. أنصتوا  
وانظروا وتأملوا. إذا تمكنت، عند النظر إلى ركن طاولتك، من أن تدرك، بفصل أدق المجاهر،  
الذرات والجزيئات التي تُكوّنها، فإنك ستتعجب من الأبعاد الهائلة التي تفصل هذه العناصر المادية بعضها عن  
بعض. كيف لا يمكنك إذن أن تخترق قطعة الخشب هذه بأطراف أصابعك، رغم صغف كثافتها ورعم  
ثقوبها؟ إن رؤية هذا العالم الصغير المليء بالثقوب يدفعك إلى أن تحلم باختراق الحدران. ومع  
ذلك، فإن جسمك عاجز عن اختراق المادة التي تدرك بأن عينيك ويلمس بشرتك  
مقاومتها الصلبة. لماذا؟ لأن القوانين التي تحكم العالم، عالمنا،  
الذي نعيش ونعمل فيه، لا علاقة لها بالقوانين  
التي تضبط المملكة الصغرى  
وجسيماتها.

تفسر

الميكانيكا

الكوانتية، البيئة

بالانفصالات، هذا العالم الصغير، أما

النسبية العامة، فهي مغرقة في الشمولية إلى حد أنها

تتحكم في الكواكب وفي الفضاء والزمان الكونيين، وفي العالم الكبير. كان

أينشتاين، واضع النسبية العامة، يردد فيما يتعلق بالنظرية الأولى وصدفها: إن الإله

لا يلعب لعبة النرد. فكان صاحب النظرية الأولى يردد عليه: ماذا نظن في نفسك حتى تسدي البصائح

للإله؟ هذان الفانونان يعصلان العالم الصغير عن الكبير، مثل ضعفين موجودتين في العالم نفسه على الرغم من ذلك.

كان باسكال Pascal يقول: كم حقيقة خلف جبال الرانس، تغدو خطأ بعدها، على هذا النحو كان يصف، وعلى هذا النحو كان يتقبل الاختلافات التي تفصل البلدان والعادات واللغات البشرية والمؤسسات والحقوق. تتيح لنا الأسفار مثل هذه التجارب، وهذه الصدمات الكبيرة بين الثقافات ومما يثير الاستعراب، هو أن العالم المادي الذي لا يخضع مع ذلك للاتفاقات البشرية، يبدو هو كذلك، منقسماً إلى منطقتين -لا تتصرف الذرة كنجم، لا تُقدَّر كتلة جسيم كما يقاس كيلوغرام من الطحين- تتبدل فيهما القوانين كما تتبدل من ضفة لأخرى لنهر أو جسر. من جانب لآخر من هذه الحواجز، نعوّذنا أن نقيم الجسور، من الحجارة أو من الجبال. من جانب لآخر من الحدود يحصل أن نوقع اتفاقات أخرى، ونصرف نقوداً، ونترجم لغات، ونضع بروتوكولات قوانين. لكن، ما العمل عندما يتعلق الأمر بالعالم وضرورته؟

العبقري الذي أعنيه، السيد كون Connes، أستاذ بالكوليج دو فرانس، ساحة مارسلان بيرتولو، باريس الخامسة، عنوانه العادي الذي يعفيكم من الجري وراءه، الصحراء. لقد أمضى حياته في إقامة العمل الذي من شأنه أن يجتسر المناطق المعنية. المفاجأة أنه أنشأه، هو أيضاً، بواسطة جبال، مثلما يفعل هود الأنديز Andes أو شيربا الهيمالايا للمرور عبر الشعاب العميقة. وهكذا، لم يجد أي إشكال مع أصحاب البيئة. كان يسمي حاله السوبر-جبال، ليس تفاخراً من جانبه، لأنني لا أحسبه متباهياً، بل على العكس، وإنما لاعتبارات تتعلق بالأبعاد، وأيضاً لكون تلك الجبال تهتز أكثر من جبال الكمان. كان أيضاً يدعوها البران (الأوتار) branes إشارة إلى المامبران (الغشاء الحيوي) membrane. هذه الأسماء توحى بالطابع العنكبوتي للمواد التي يستخدمها، التي هي من خفة الكائنات الرياضية ورهافتها. كان في بعض الأحيان يُبصر أن الجسر المعني بالأمور يعبر عدة أبعاد، تناهز الأحد عشر حسب ما فهمت. يقول آخرون إنها أكثر عدداً. ها أنتم ترون إلى أي حد تفوق قدراته قدرات الجني الذي التفتيته في الصحراء. إنه يقيم جسراً ذا أبعاد متعددة! لم تروه قط، ولعلكم لن تروه أبداً، حتى ولو كان لديكم ما يكفي من رهافة العقل لرؤيته؟ لكن، حتى ولو أنكم لا تستطيعون تصوره، فيمكنني بالتأكيد أن أقول لكم إن هذا الجسر، الأكثر واقعية من الواقع، يسمح بالضبط للواقع أن يوجد كامل وجوده، أعني أن يتمكن من أن يقدم نفسه، في الوقت ذاته، لعينك ولعين كائن في حجم الذرة. فما عسانا نقول عن واقع لا يوجد فحسب إلا بالنسبة لعين نوعنا البشري، بحيث لا ندركه حتى النحلة أو الدودة أو الجرثومة؟ ينبغي للواقع أن يظل كذلك بالنسبة للجميع! ينبغي أن يكون هناك جسر كوني. جسر من البعد الكوني بحيث نتعذر علينا رؤيته أو حتى التفكير فيه. وعلى العكس من ذلك، فإن كوننا نجد صعوبة في تصور هذا الجسر، يمكن أن يستخدم حجة لوجوده، أو على الأقل، علامة على ذلك. وهكذا، فلبلوغ واقع كوني، ينبغي إقامة جسر تفوق أبعاده كل الوقائع الموجودة والممكنة.



يختلّ إلي أنني أراه، أنا معجب بهيكله وجماله، أسمع بهتز تحت نسيم الكون. كيف تُغني، وكيف نصف جسراً أكثر واقعية من صفتيه؟ هو ذا جسر أكثر منفعة من كل الجسور الواقعية المرئية والممكن استخدامها والعيش عليها. بفضلله أذهب إلى شنت.

شكراً لك السيد كُون، أيها العبقري. نسيت أن أسألك: هل يمكنني أن أجد في ذلك الجسر طريقاً نحو قلب صديقي؟

لكن، خطرت لي فكرة مبالغتها. عندما اكتشف نيوتن الجاذبية الكونية، ألم يكن قد أقام بالنسبة لعصره جسراً بين سقوط التفاح في البستان أو الأشياء على الأرض- في مستوى بسيط-، وبين حركة الكواكب- في المستوى الكبير-؟ مستوى أي كائن حي لا يتجاوز مستوى شجرة السيكاوا، فهل للحياة علاقة خفية بالحجم؟ وهل تجسّر، هي أيضاً وسطاً في سلم المقادير، بين مقادير الكوني ومقادير الجسيمات! لم نلّفك نقيم سلّم يعقوب، ذلك السلّم الذي رآه يعقوب ممثلاً إلى السماء في أثناء هروبه من أخيه كما جاء في التوراة، وهو جزء من أحلامنا الراقدة كي نرقى نحو إله لا يمكن تمثيل عظمته. مهما بدت هذه المشاريع غير ذات معنى، ومهما بدت بطولية، بل وتنطوي على شيء من الغطرسة، يبقى أنها تقيم جسر ابتهاج.

المجد لطولي السويسري Toni le Suisse: من الذي يتخفى وراء هذا الاسم؟ كان يبحث في أي مكان عن الأنابيب والكابلات والخيال، فيبي مجاًناً جسوراً معلقة في الإكوادور وكولومبيا وجنوب شرق آسيا. إنه ملاك، ومرشد، هذا المجتبر للفقراء، يحمل على كتفه جبلاً عالمياً.  
لاداك، 1990.



## 4- الجسور المقدسة







أونو هانز بيير، توفي اليوم،  
 نقش سنة 1929 أرواحا  
 نمر من بهر النسيان لا  
 أحد سيذكره، عندما  
 تطلع تلك الأرواح الشاطن  
 الآخر بلحيم ومع  
 ذلك، فإذا ما تأملنا  
 صورته، فإننا سنذكره  
 فهو يحترق العين ماء  
 النسيان، وهل يعبره  
 عكسًا؟  
 الصفحتين السابقين  
 حشر فاسكو دو عامما،  
 لشبونة، 1998.

# خلود النفس

على طول طريق مزارع نبات الخرف، في قعر الحافة، يرفد قارب صغير. كانت سلسلة إنحاره المربوطة بالمقعد الخلفي، غارقة في الماء مغروسة في الوحل اللين، مشدودة من جانبها الآخر إلى شجرة صفصاف بواسطة قفل. من هنا حيث أنا، أتمكن من رؤية صباية للصفة المواجهة. لن أبلعها قط. لمن هذا القارب الصغير الأسود ذو الهيكل الهش الذي يرشح؟ هل هو لأبي، أم لأخي... وهل يحق لي أن أركبه؟ كان قد غرق بفعل المياه القوية لفصل الربيع، جعلته يطفو هذا الصيف، وانتهيت للتو من جذب الحبل الذي يربطه، وشدته إلى شجرة البلوط أو الصفصاف. لا أعرف إلاه، ولا أرى إلاه، لماذا يعود دومًا إلى ذاكرتي، وأحلامي، وعبر دموعي؟

بفصله، وتحت طلقات التتار، أعر، أنا ميشيل ستروغوف Miche Strogoff، الأعمى، أنهار سيبيريا العظيمة، نهر أوب Ob وآينيسي len ssei، بصحية نادية، محبوبتي. هاحمي قاطعا طُرق، ودفعاني خارجه في مياه الأمازون، عرضة لأسماك الضاري المفترسة. استلقيت أسفل القارب، أنا العبد الهارب من سيده، وتابعت تيار المسيسيبي المجنون، في الوسط، من غير أن أتبين شطآنه. مع أخي كلود، شبه توأمي، من يا ترى وجدنا على حصي قاحلي بعيدًا عند ذراع نهر الجارون، أو النيل أو التيبر؟ أمام هذا الزورق يخطب دون كيخوتي على الامتدادات الكونية، بينما كنا نفهقه، سانشوبانشا وأنا... عند فيضانات 1930، تخظت والدتي، وكانت وقتها حاملًا بي، نافذة في الطابق الأول للمنزل الذي غمرته المياه، من هو ذاك الرجل، الذي لا أعرفه، والذي ساعدها على الحفاظ على توازنها وامتطاء القارب ليأخذها نحو وضع مولودها؟ أنتظر الآن أن أنحر على متن قارب مماثل، وخارون Charon مجدفاً، وأنا أحمل مشعلًا في يدي الأخرى، نحو شيطان النسيان.

لم أتمكن قط من فراق هذا القارب. عليه ولدت، وعليه سأموت، عليه أنزوي، وفيه أقطن وأنام، أحلم وأفكر، أعمل وأستريح. من كل جانب، تنتقل الشيطان، العالم كله يدور من حوله، الجميع يعتقد أنني أسافر، بينما قاري وحده هو الذي يلتقي، ويعبر، ويستكشف، ويتجراً على الحركة. عرفت سفيني عشرة بحار وألف شاطئ، في حين أنني لم أعرف إلا هي. ينقلني محرّكها ساكنًا، هو يتجول، وأنا أبقي، هو يفقد التوازن، وأنا أظل ثابتًا.

يقال إن الأثينيين القدماء كانوا يقومون بإصلاح لا يتوقف لقارثيسيوس Thésée الذي اقترضه البطل كي يحري في جزيرة كريت Crète، للملاحقة ميبوتور Minotaure، كي يقتله داخل المناهة، منقذًا بذلك من الموت أساء مدينته وبناتها الدين كان الأب-الثور-le Taureau Père يلتهمهم. للإبقاء على ذلك القارب، شفقةً، كانوا يعزّرون القطع التي يُتلعها الزمن من تطين للقعور وعارضة وداعمة وأشرعة وعناد... ماذا تبقى منه عندما تجدد العناد على هذا النحو؟ رغم جدته، فإنهم كانوا يقدسونه تحت اسم قارب ثيسبيوس. كلما حدوده، ازداد تقديسهم له. وكلما تبدّل، احتفظوا له بالاسم نفسه.

في الديانة والتراث اللذين يمكنهما أن يقولوا مثل هذه الأمور العجيبة، يوجد الملاحون الحديرون بهذا الاسم: نعم، لا يعرف القارث كيف يُبحر إلا لأنه يتأرجح ويتذبذب، كلما تخرب مركب الصياد، قاوم الزمن وسوء أحوال الطقس. التمايلُ يضمن الاستقرار. والسوائل تعرف التثبيت. بما أنها متذبذبة، فوحدها الزوارق غير المستقرة يمكنها أن تضمن الخلود القار للآلهة والنفوس.

وهكذا، فعندما يتمايل بي قاربي، فإنه يطل قائمًا فوق البحر. بما أنه ثابت من شدة تحوّله، فقد استمر في العيش، ونحا في خضمّ حياتي المضطربة التي قاربت الموت عشر مرات. لقد غرق مرات عديدة. كيف أمكنني أن أسبح من دونه؟ بعد غرقه الذي كان مأساويًا في أغلب الأحيان، تمكّنت من أن أجعله يطفو من جديد. فهل أستطيع ذلك على الدوام؟ ما زلت أذكر أنه عندما عاد للظهور، مثل طيف شبح، تحت كفنه المائي المظلم، وهو يقطر، تحت صرير الروافع وتحت الصافرات التي تنذر بالرفع، كيف وُلدت من جديد صواربه وكيف عاد تبطين قعره إلى الحياة. لقد عشت عودة حسوري إلى الحياة.



عمل في اللون والتشكيل، جسر كليشي في آسنيير Le pont de Clichy à Asnières، يشهد على عصر مصي: صامت ومائي، عذب وريعي، ملطخ ومتناغم، نبي ومتلون. يا فرنسا الحلوة، ما هذه الطبقة المهيمنة اللامثقة قُذرت لك؟ فاسان فان غوغ: الصيد في فصل الربيع.

Pêche au printemps, le pont de Clichy à Asnières, Vincent van Gogh, 1887.

مثل حدي، أحب الاطلاع على حياة القديسين، التي  
نُعوضنا عن الأساطير القديمة البغيضة. ماذا كنا لنفعل  
في حيواتنا الرتيبة لولا هذه الحكايات من أجل الأطفال،  
وهذه الأحلام من حل الكبار، ولولا المسحرات العسيرة  
التي يضعها المؤرخون موضع شك، باسم حقيقة تكون  
من الهشاشة بحيث إن الجيل الذي يأتي فيما بعد  
سرعان ما يعدها عن صديق أطروحة لا تقتضي كبير عناء؟

ألن تسخروا، مثلي، عندما تعلمون ما إذا كان القديس  
يوحنا نيبوموسين Népomucène، المعترف به كراعي  
الجسور، قد وُجد بالفعل أم لا، وُلد أم لا، هل هو  
تشيكي أم لا، أواسط القرن الرابع عشر، في وقت لاحق أم  
في وقت سابق، في قرية نيبوموك Nepomuk، التي لم  
ولن أزورها قط، وما إذا كان يصنع معجزات أم لا، وما  
إذا كان الملك فنسيسلاس الرابع Venceslas، قد أمر  
برميهِ أم لا في نهر فيتافا Vitava أو مولدو Moldau،  
كي يموت غرقاً لكونه لم يُرد أن يكشف له أم لا، السر  
الذي باحت له به الملكة زوجته في أثناء اغترافها.

أمارس العفلاية، وأحب الوضوح في المعرفة  
والسياسة والطب، وبطفتي الشحصة وعلاقتي بالعالم  
والآخرين. لكن، لكي أضفي سحراً على حياتي الوجيزة،  
أحب أن نأكل الحكايات، وأفضل، في بعض الأحيان  
أن أأكل أنا. ألا تجدون أن الشرذ، والمعاني والجمال الحي  
أكثر منفعة لحياتنا من هذا النوع، ذي المدخلين، الخطأ  
والحقيقة؟

بالله عليكم: هل يمكننا أن نفكر في الحجارة من دون  
لحم، وأن نتصور جسراً من غير جسم، وأن نرسم فن  
الجسور من غير أن نبجل نموذجاً راعياً، هل يمكننا أن  
نبني جسراً pont من غير رجل دين spontife؟  
الإنسان ابن جسور.

## ماذا حدث في قرية نيبوموك Nepomuk، ببوهيميا الغربية Bohême occidentale حوالي سنة 1340؟



تسعيد حياة القديسين في بعض  
الأحيان - لكن، من وجهة نظر  
الضحية - مشاهد وثنية - هنا إعدام  
ورحم - تتفدها ديانتهم التوحيدية.  
بالنسبة للإيمان العقلي، هل ينبغي  
رفض تلك المشاهد؟ أم قبولها  
تروبولوجيا؟ البروتستانت يفتار الحن  
الأول، والكاثوليكي الحل الآخر.

شهيد لقديس حان نيبوموسين،  
نيبولو، 1750.

Martyre de saint Jean  
Népomucène,  
Tiepolo, 1750.



من أين أتينا؟  
هناك من يقول من  
الماجدالينيان، عشرة  
آلاف سنة قبل الميلاد؟ وهناك  
من يرى: من قعر مغارة الإحوان  
الثلاثة في أريبيج؟ آخرون يقولون من  
نجسير، وتحول بطيء؟ الأنسنة لم تكتمل  
إلى اليوم، وهي تنظر إلينا في حالة ذهول.

# الجسر الفلكي لميلاد الإنسان

إن كيتزالكواتل Quetzalcóatl نعبان له ريش ووجه عجوز، هل يعتبر، قبل النزعات الداروينية، عن الفكرة القائلة إن الطيور صدرت عن الزواحف، وإن الكائن العارف تطور لاحقاً؟ هل يخلط هذا الوهم في حسر واحد حساب الزمن للأنواع كلها؟ هل يقيم الهرم المكسيكي على هذا النحو جدولاً زمنياً، وخلاصةً للتطور؟ هل يبين هذا الانبثاق العمودي للكاننات التي تعمّر طويلاً، هنا في تيسوتشتيتلان Tenochtitlán، أن الحصارات التي قضينا عليها كانت تعرف تطوّر الحياة أفضل منا وقتلنا؟

ها هو الثور نائم ملقى على بطنه، وأرجله مثنية، كيف يمكن أن يكون لهذا الحيوان الأرضي، هو كذلك، رأس بطريق ملتج؟ وبجناحين بنيتان على ظهره، يمكنه أن يطير، بالتدرج، نحو المعبد، ويتخطى عتبه، فيتسلق نحو القداس، وبصلي، فيتحوّل كائناً عارفاً أو حكيماً. اذهب إلى القداس Introibo ad altare Dei. أمام أبراج بلاد ما بين النهرين، بجسر الكاروبيم kéroub، جذ الكائنات القدسية التي تمزج أجسادها بين أجساد الأسد والثور والطائر والإنسان، وهو كذلك طائر وإنسان وتمثال ذو أربعة أرجل، بجسر، في وضعية الجماد نفسها، التطور ذاته: للانتقال من الحوافر إلى التفكير، ينبغي أن يكون هناك جناحان على الأقل. لتحويل البقر إلى حكيم منأمل، ينبغي المرور عبر النسر. حينئذ، وعلى غرار ذلك

الجذ، سنذهب، أنتم وأنا، نحملنا الرياح فوق  
بابه، إلى معبده لعبادة الكائن السرمدي. بما  
أن هذا الوهم يحرس، هو كذلك، مدخل  
مكان مقدس، فنحن لم نتردد قديماً،  
ولن نتردد قط في تفحص معناه عن  
طريق الصور والتأويلات والرموز...  
الدينية. وعلى رغم ذلك، فقد كنا  
نتكلم من غير تمحيص عن عبادة  
الأصنام وتعدّد الآلهة مثلما  
هو الأمر في حالة كيتزالكواتل  
Quetzalcóatl. فهل كنا  
نعرف بكامل الوضوح ما  
نقوله؟

بذكرنا هذان التمثيلان، حديثاً  
العهد، بمن جداري أكثر قدماً: في  
الحقبة الأولى من العصر الحجري  
القديم، منذ حوالي عشرين ألف سنة،  
يحمل ساحر مغارة الإخوة الثلاثة Trois-  
Frères في آربيج Arège في فرنسا، رأس  
أيل. وفي لاسكو رشم إنسان الكرومانيون Cro-  
Magnons في مشهد الآبار، جسماً آخر للإنسان  
دا رأس ومفقر طائر. أما نقوش جنوب إفريقيا التي  
تمثل أحسافاً ثنائية مشابهة، نصفها بشري وآخر  
حيواني، فتعود إلى ما يقرب من ثلاثين ألف عام. بالتأكيد،  
نحن لا نعرف كيف يؤؤل هذه الألغاز، وما إذا كانت رموزاً أم  
شعائر؟ ولكن، هل نفهم فهماً أحسن المكسيك أم الآشوريين؟

لا يمكنك أن تشعر بما يسمى رعنا مقدسا  
أحس مما تشعر به في متاحف المكسيك، في  
ذكرى انتفيل الشري اندي مارسه الأريك. ما  
من شك لنا بحفي عن أنفسنا تفنيل عصرنا  
القديم، وبطلق اسفا احمر على التفتيل  
الرهس. لكن كيف لا يستطيع الصابط الذي  
يلبس حلد الصحية التي أن على نصفيها  
ألا بتقيا؟ ليفترض أن الشعيرة تضحي  
بحيوان؟ فهل سيلبس جثته حينئذ؟  
أحس هنا الأصل حارح-الدارويي  
للناس عن طريق الاستعانة  
بمصدر خارجي للریش والجلد  
حوالي 1500.

لنتحد البطور العاكس: فبدلاً من أن نقول  
إن ديانة ما، صنمية، تعددية، أو وثنية تعبد  
هذه الأحلاط من الحيوانات والبشر، وثبخلهم،  
وتصلي من أحلهم -أقول من جديد وأكثر، من يفهم  
حقاً هذه الأقوال؟- أذهب إلى القول بأن الأمر يتعلق  
بتحوّل الحيوان إلى إنسان، وبأن مسلسل الأنسنة هذا  
يمرّ عبر الديني. أنا هنا أقرأ التأويل المعهود لأعطيه معنى  
آخر. أستعيد، حرفياً تقريناً، أحد أواخر حكايات الزعة  
الإنسانية Rects d'humanisme. نسيت أن أقول إن  
الصم، باعتباره حلول صورة مكان أخرى، فهو بقيم جسزاً.

هل تُبخل الصنمية الأوهام؟ بما أنني لا أفهم هذا السؤال،  
وأعجز عن الجواب، أفضل أن أقول إن هذه الديانة قد تسمح  
بالتحسير بين الحيوان والإنساني. بالفعل، فهذه الأصنام لا  
تحرص مؤسسة سياسية أو قانونية أو مسرحية، ولا هي تُتوجها،  
وإنما تحرص بناءً يُعطى فيه القدسي معنى للأفعال والتصرفات.  
من يدخل مغارة لاسكو Lascaux سرعان ما يشعر بالتحوّل الذي  
يحدثه المعبد المخل لديانة مبهولة: ما زال بعض علماء الحفريات  
يطلقون عليها كنيسة سيكستين Sixtine لما قبل التاريخ. هل  
يقود هذا التحوّل، الذي يُقتل هنا، نحو التقوى؟ العكس هو  
الصحيح، فإن هذه التقوى تصبح هي أداة التحوّل ومحرّكه  
وشرط حدوثه.

نعم، يكسو الریش الثعبان، قبل أن يتأنس هذا  
الطائر الفقري، ويصبح الثور نسرًا كي يتأنس رباعي  
الأرجل الثديي. وهذان التحوّلان لا يحدثان إلا هنا  
فوق معبد أو أمامه أو داخله. إنهما لا يتجهان  
نحو المقدس، بل المقدس هو الذي يجعلهما  
ممكنين. لولا الديني، فإن الجسر التطوري  
من الحيوان إلى الإنسان ما كان له أن  
يتم. نعرف هذا على الأقل منذ إنسان  
الكرو-مانيون Cro-Magnon.



على أية حال، فهذا هو

النموذج المجسد، الواقعي

والعيني، النمثال الذي لا

يتحرك، لمسلسل الأنسنة: نعم

إنه تجسيرنا الأول. تتطور هذه

الحيوانات نحو رؤوسها. ما الذي

جعل هذا التحول نحو البشريات

ممكناً؟ إنه الديني. لقد تم الالتحام-

التحول أمام الهرمين، وحدث حلول صورة

مكان أخرى في ظلام كهوف آرييج Ariège

أو لاسكو Lascaux. حمل الحناحان الثور

إلى المعبد حيث أصبح رباعي الأرجل عجوزاً.

وحمل الريش الكيترالكواتل نحو مكان مقدس

حيث استنقام الحيوان الثعبان إنساناً. قاد الطيران

الحيوانين الأرضيين إلى أن يعتليا درجات، ويركعا أمام

المعبد، نحو شعائر الصلوات. وفي نهاية التعتد، تمكّن

الحيوان من أن يفكر ويتأمل. الديني يؤلد الأنسنة، أو على

الأقل، يعمل لصالحها.

إن الديانة، باعتبارها مولدة لأنسنة لم تنفك عن التحقق،  
فهي تُوفر لها الشروط العامة المتواصلة. فهل هي التي تكمن  
من وراء كل تحوّل وكل تشعب وكل جواز؟ لست أدري، إلا  
أن هذه الأوهام تُظهر الكشف التدريجي والشاقّ لقوانين  
التطور. ونحن لم نستطع الانقلاط منها إلا مقابل شروط  
باهظة. بما أن الأدمي ينبثق ببطء، فهو يطل عالفاً  
بالحيوان. وبكل أسف، ما زلنا نشبه أم الهول،  
والثعبان المكسو بالريش، والثور-الكاروبيم، ما زلنا  
نشبه الحيوانات التي تتكلم في الخرافة، وهذه  
الأحياء ذوات القرون أو ذوات منقار الطير التي  
رُسمت في عهد الكهوف والمغارات... بشبهها  
أكثر مما نشبه بطل الملاحم الإغريقية  
القديمة.

لا يجسر الديني البشري والإلهي

فحسب، وإنما يقوم بتجسير ثلاثي

دئب-إنسان-إله، لأن الإنسان

لا يفتأ يمزّج من حالة الذئب

إلى الإنسان، إلى حالة الإله

إلى الإنسان. إنه لا يفتأ

يمدّ الجسور بين الملاك

والحيوان، لا يتوقف

عن العبور بين هذا

وذاك.

في العرب كما في الشرق ترتقي الأهرام والمعابد وسلالم

الولوح والتمائيل، في استقلال عن بعضها، عمودياً بهدف تخليد

أكبر حدث عرفه هذا الكوكب. كيف يتحول ثور أو ثعبان أو طائر أو

نسر أو أيل فحاة نحو الكائن العارف؟ عبر حسر الديني.

كلا، لم يكشف لعز "أم الهول" sphinge عن أسرارها بعد. ها هو

نصف الجواب الذي نستخلصه من فحصه: تقول الحكاية، بعد القرار

المزعوم، أقدم هذا الشبح على الانتحار، وانصرف أوديب إلى مصيره. لا تنفك

نردد بلا تعقل كلمة إنسان، من بعده، معتقدين أننا أجبنّا مثله عن السؤال.

إنه عين الخطأ، لأن الرقم النهائي للعزّ يمثل في زخم السرد الذي ينتقل من

الحيوان الذي يضع السؤال، والذي هو نصف آدمي، إلا أنه قريب من الاحتضار،

نحو هذا الكائن الذي ينجو من الموت، فينطلق من جديد. كيف نصف هذا الانتقال

من الموت الحيواني نحو انطلاقة آدمية صرف، اللهم إلا كونه تحرّزاً لنصفنا الحيواني...

أو لنقل إنه الأنسنة؟ تشبّهه حكاية لقاء أوديب بأُم الهول بصدور الإنسان عن الحيوان،

وترويه وترمز إليه، وتوجره وتحلده. وحش مفعم بالأمل Hopeful monster. يبي

أوديب الظهور الأول للجسر بين الحيوان والإنسان. إنه رأس الجسر حقاً. وها هو الشطر الثاني

للغُر: الديني يغلف هذه الحكاية الأسطورية. على الأقل شكل من أشكال الديني، وهو شديد

القدم، والموت لا يفارقه.



وفق القراءة  
التوراتية، ارتقى  
إبراهيم الجبل  
كي يضحي بابنه  
إسحاق طاعة للإله.  
في اللحظة التي رفع فيها  
الأب ذراعه، عين ملاك الرب  
دبشا يتشابك قرناه في فروع  
الأدغال القريبة. لاحظوا المشهد،  
لا شك أنه يضاهي المشهد السابق  
أهمية في سياق التطور نحو الأنسنة،  
وانتبهوا لدور إبراهيم بوصفه جسرًا بين  
الحيوان في الدنيا، وني الله في السماء.  
نحن أنصاف حيوانات، وأنصاف ملائكة،  
نتخطاهما معًا. سنبقى جزائريين أو أكاشا،  
إذا واصلنا ذبح أبنائنا، كما فعلنا. يوجد بلعام  
Balaam، وهو يعلو ظهر أتانته، وهي تهرول، وهو  
لا يبصر الملاك أمامه، يوجد في الوصعية نفسها لرجل  
الدين pontife. تصدر الأنسنة عن هذا الجسر pont.  
الإنسان وليد الجسور والديانات Homo ex ponte.

ما تثنئه الرسوم والمنحوتات في صور وتمائيل، يجعله  
سفر التكوين هنا يتحرك في حكايات توضح كيف تحل صورة  
الأصنام-الجسور مكان أخرى. ومن جديد، فهي تروي الأنسنة  
في السياق الديني. وبصفة عامة، ألا ترمي الأصحية إلى أن تقول،  
بطريقة ما، إننا نقتل الحيوان الذي يسكن كل واحد منا، أو يسكن  
التخ الحماغي، بهدف بلوغ الإنسان، ومن جديد، في سياق ديني؟

مريد من الأنسنة: يتصور تيتيان أن جسد إبراهيم، أبينا، يجسر بالأبدي  
ولأرجل، ملاك الرب ناسه، من جهة، ومن جهة أخرى، فإنه  
يجسر املاك نفسه بالحيوان لمس في الأسفل واصعاء في الأعلى.

أضحية إبراهيم.

Sacrifice d'Abraham, Tiziano Vecellio (1488-  
1576), eglise Santa Maria della Salute,  
Venise.

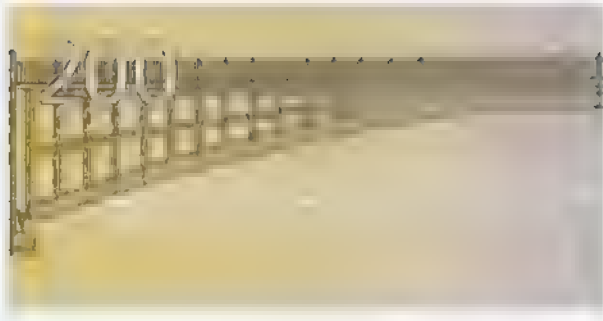
## جسر المسيح في أوروبا



لقد فقدنا جميعنا جسر الروحانيات. نحن قاعدون على شاطئ الدنيا، لا نرى الشاطئ المواجه إلا عبر ضباب كثيف. إننا نعيش متخمين منقلين بالثروات والسرعة المبتذلة، منقطعين عن الضفة الأخرى التي لم نعد نعرف عنها شيئاً. من يا ترى سيعيد بناء هذا الجسر؟ أنا المسيحي، أذكر إنساناً-إلهاً، أحسّ إليه أشد الحنين، قد قوّمته طبيعته أحسن تقويم.



على خرائط أوروبا، التاريخية واللغوية، تتبدل الحدود حسب الأزمنة، حسب الدول العظمى القائمة، روما أو إسبانيا، وحسب الثروات القديمة للتجارة أو الغطرسات الجديدة للأمم، وحسب إشعاع المدن والموانئ، والصراعات الماضية التي خلّقت ملايين القتلى. ترسم مشكالات kaléidoscopes عديدة على تلك الخرائط، صفحة صفحة، أنظمة سياسية، ومناخاً، ومواد أولية، وعائلات لغوية، وحصارات تتمخض عن عادات متميزة. مجزأة على هذا النحو، هل يخفي هذا الرأس الضيق عند الطرف الغربي لأوراسيا، بوغاً من الوحدة، خلف هذه المظاهر الملونة؟ نسعى اليوم بالضبط إلى لمّ هذا الشتات، وجمع هذا التباين كي لا نفرض على أحفادنا الخوض من جديد في انتحار ذي حدود ضاربة في القدم.



هكذا نرسم جسورًا مجردة على القصاصات الرمزية لأوراق اليورو النقدية، العملة الموحدة لأوروبا: إنه لحدس رائع، رغم كونه مجرد عمل شكلي، أن تعمل هذه الجسور النقدية وحدها على توحيد أوروبا القديمة، وقد مُرقت منذ فترة طويلة. نعم، ما زلت أبكي كل مرة أعبر فيها نهر الراين، من شدة الانفعال والفخر: أنتمي إلى الجيل الذي وقّع معاهدة سلم الجسور، التي مرّ عليها زمن طويل.

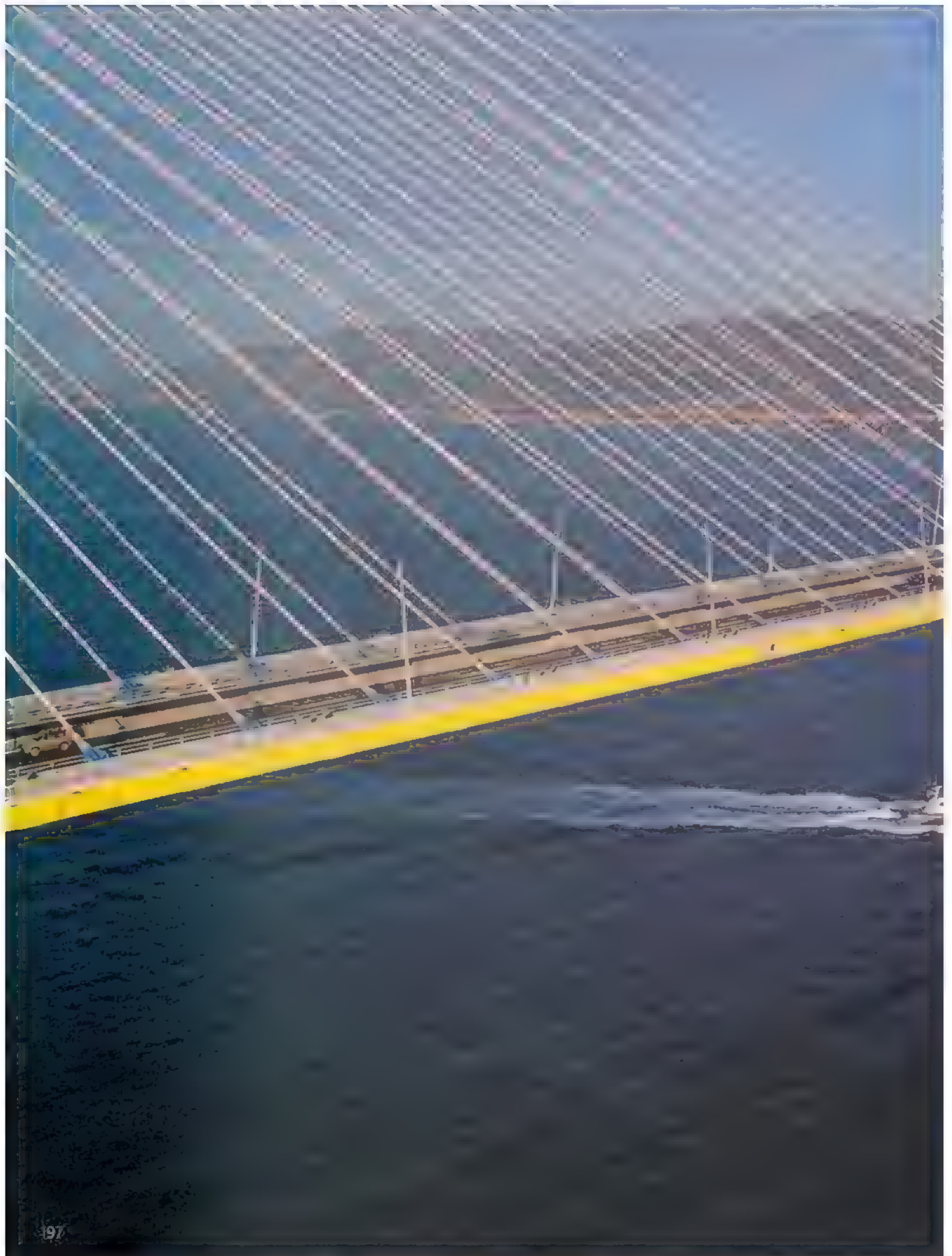
تنزين الأوراق النقدية لليورو بالجسور. هل يرمي ذلك إلى توحيد البلدان الأوروبية؟ أم للدلالة على أن المال، المكافئ العام، يجسر كل ما هو موجود؟ لنسخر من وقاحته البليدة: أقدم الجسور تظهر في الأوراق الضعيفة القيمة، والجسور الحديثة على الأوراق النقدية ذات القيمة، كما لو أن تقدم التاريخ يمكن أن يحسب بالأرقام! ما زال هناك بعض الديباصورات الذين يفكرون على هذا النحو، فريغبون في أن يثقلوا، عن طريق هذه الفكرة البليدة، جيب كل منا وبالتالي رأسه.

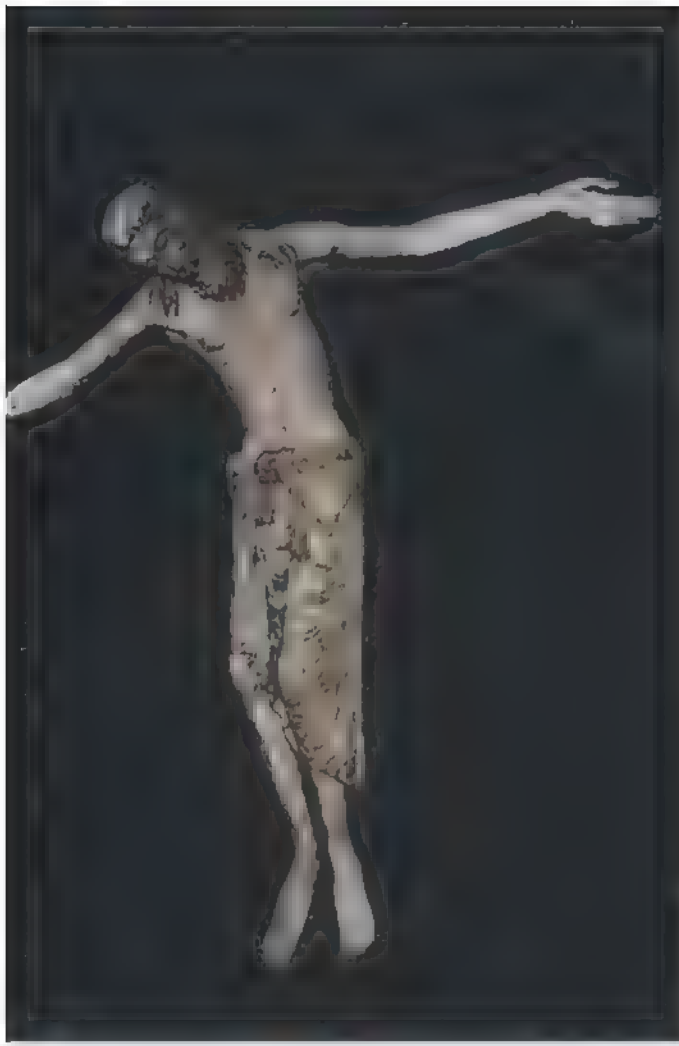
الصفحتان التاليتان: جسر  
يون-أنتريون، 2004.

فهل نمكر في التمزقات التي ينبغي رتقها؟ هل نرغب أن تتقارب الدول متحدية المنازعات، وأن تتفاعل الثقافات التي لا صلة بينها، وأن يتلاقى الرجال والنساء المشتتون، والأرواح المبعثرة؟ بما أننا محدودو الأدهان بالزمن التاريخي، فإننا نسعى إلى محو الحدود، وربط علاقات بين حكومات، وتوحيد سياسات. وبما أننا أكثر حيوية وثقافة، فنحن نترجم لغات: إيطالية وإسبانية، وفرنسية، وألمانية، وروسية، وتشيكية، وكرواتية، وبلغارية، وبولونية، وهنغارية، وفنلندية... وبما أننا أيضًا أكثر انفتاحًا، فنحن نؤلف بينها ونضمها في عائلات: لاتينية، جرمانية، سلافية، فينية-أوغرية، هند-أوروبية أو لا نضمها... لكن، خلف مظهر الحرائط المغربي، وهذه الأطالس، وخلف ضجيج العمق لبرج بابل، هذا الذي يسير في طريق الاختزال، نكاد نلقي إلى غياهب النسيان بالانشقاقات والبدع التي يكفي ذكر أسمائها كي نتبين الانشطارات والقطيعات، وهي خيارات وتشعبات غارقة في القدم إلى حد أننا ما زلنا نحملها في صمب أجسادنا الممرقة التي فقدت ذاكرتها.

منذ أكثر من ألف عام، لحظة حدوث التفرقة الكبرى، انفصل الغرب الأوروبي عن مشرقه، الذي كان يدعى كذلك من طرف روما، على إثر نزاعات مذهبية يقول الفقهاء إنها لم تكن تعني إلا السلطات. أنا لم أعد أثق في كلامهم. في الحقيقة، كنا نقاسم أعضاء المسيح، الإنسان-الإله ذي الطبيعة المزدوجة اللاهوتية والناسوتية كما نعتقد، نحن المسيحيين. لقد مزقنا إلهنا المشترك أجزاء. كنا معًا أصحاب بدعة، فغدونا من جانب لآخر، نقول بواحدة الطبيعة *monophysites*: احتفظ الغرب بالوجه الملائكي ليسوع، بينما احتفظ الشرق بوجهه الجسدي. في الحقيقة، إننا نقاسمنا جسد المسيح، الإلهي والبشري، وشطراباه قسمين، مثلما قسم آباء روما الأولى إلى مئة جزء جسد روميلوس الملكي عند مستنقع الماعز. لقد كانت أوروبا ترقد وقتئذ أعضاء متناثرة.







لذا، فنحن لا نفكر هنا إلا في التاريخ، والمجتمع، والتقنية، ولا ننتشغل إلا بالمادة والعمل، والثروة. ولا نعرف رسم الحدود إلا على أوراق نقدية. نخضع كل يوم لثلاثة إجراءات: الخبز، والقوة، والمجد. لقد صاح بذلك المحقق الكبير في الإخوة كارامازوف لدوستويفسكي. وفي الحقيقة، فقد قطعنا الجسور مع أصدقائنا الأرثوذكسيين لكونهم مرقوا جسد يسوع. لم يتبق لنا إلا نصف عالم، لم يتبق لدينا إلا نصف جسد. وجسدنا يحمل هذه القسمة. ملايين من الأشخاص لا يفكرون، في هذا الغرب، إلا في

عن طريق الحط الواصل، فإن اسم يسوع-المسيح يجتث اسفا ساميا مع آخر اغريقي، هند-أوروبي. اتحاد هاتين العائلتين لثقافتين أمر نادر وحصب في نفس الوقت، وهو قد عقر، دينيا، أكثر من ألف سنة، واليوم، يسعث في العلوم التي توحد الحوارزميات مع الهندسة.

Christ Courajod, Xlle  
siècle

عالم يدعون أنه واقعي، إلا أنه يقتصر على الأكل والمال، وبعض الأمجاد الصغرى، السياسة، والاقتصاد، في حين أن ملايين أخرى في الشرق تكرر نفسها لعوالم أخرى وأحلام ومثل عليا ينفر منها الغرب باعتبارها لاواقعية. وهكذا، فمن جانب لآخر، نحن المجروحون مثل المسيح المقطع الأطراف، لا نجر إلا أنصاف بقايا لأنصاف وجود.

أما فيما يتعلق بعيد الإصلاح Réformation، فإنه قد قسم، محدذا، الرغبة، جزأين: من جديد جسد المسيح. بما أن الغرب بقي، منذ الانقسام، نصف مسيحي، فإنه تجزأ مهبطاً من جانب لآخر. لقد نمت أوروبا الشمالية التي أصبحت بروتستانتية، من الموانئ الهانزية إلى إسكتلندا، ومن لندن إلى جنيف، ثرواتها، ووسعت تجارتها، وراكمت رؤوس الأموال، لأنها أولت عشاء المسيح تأويلاً رمزياً: العلامات تتداول أسرع مما تنتقل البضائع. أما أوروبا الجنوب، فقد ظلت كاثوليكية، واختارت عقيدة الحضور الفعلي، ففضلت الواقعي على الافتراضي، والذهب على الأوراق النقدية، أو الأشياء على العلامات، فغدت، بالتالي، فقيرة مقارنة بالأولى. وهكذا فقد البحر الأبيض المتوسط الغارق في النوم أمجاده. وانقسم الغرب من جديد إلى نزعتين ماديتين، المادية الثقيلة والمادية الخفيفة، السريعة والبطيئة، الباعمة والصلبة. ومثلما قطع الانقسام القديم الجسر الذي أقامته الطبيعة المزدوجة للمسيح، فإن هذا الفصل الجديد فضل الرغبة عن النبذ، فأعاد قطع جسور جسده ودمه.

من جديد قسّمنا جسد المخلص جزأين: شمالاً وجنوباً، رُبع لكل نصيب، اعتباراً بأن غرب أوروبا لم يكن ينال منه إلا النصف تاركاً النصف الآخر للأرثوذكسيين. وهكذا قسّمنا أجسادنا أربعة أجزاء. عرفت الإمبراطورية الرومانية أسوارها، عند أفق السافا Save والدراف Drave والدانوب، إضافة إلى محور عمودي جهة الفيستول، لقد رسم صليب المسيح أربعة أحياء للإمبراطورية المسيحية. إن أوروبا التي تريد أن تلتئم عن طريق الجسور المرسومة على أوراقنا البقعية، أراها هذا الصباح مثل جسد المسيح المشروخ. لقد صليباه، نحن الأوروبيين، مرة ثانية. وسنوخذ فضاءنا عندما نعيد التئام جسدنا والتئام جسده.

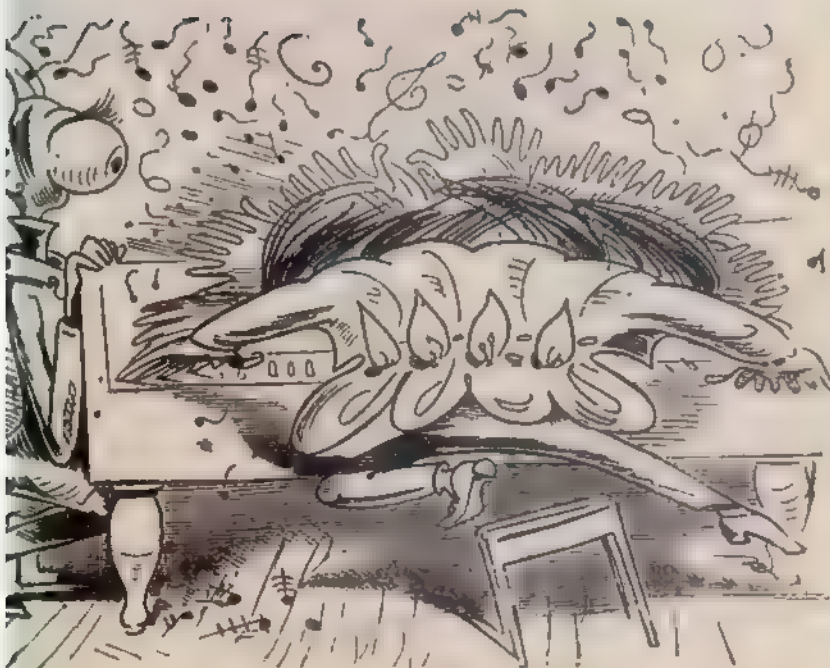
إننا نرسم جسوزاً على أوراق اليورو، لأن المال يقيم الجسور بين جميع الأشياء، بوصفه معادلاً عالمياً. لكن، يمكن أن نقول الشيء نفسه عن الموسيقى، لأن الموسيقى تجسّر الأقوال، من حيث هي لغة عالمية.

حول أطراف المسيح الممزقة، ألف الموسيقار ديتريش بوكستهود D etrich Buxtehude قديماً إحدى روائعه. بما أنني معجب بالثقافة الباروكية، ثقافة البلدان الهانزية النهضوية والكلاسيكية في آن، وبما أنني تربيت، منذ الطفولة، على الشعائر الإيطالية والفرنسية، وعلى ثقافتها وفنونها، فإنني أسمع، بفضل هذه الرائعة الموسيقية، وحدة أوروبا وهي على وشك الانقسام إلى جنوب وشمال؛ ذلك أنها تُسمعك أحياناً قريبة من لولي Lully وكوبران Couperin، والموسيقى الروحية على الطريقة الفرنسية، كما أنها تبشّر بموسيقى بيريغوليزي Pergolèse، وبعده بفيفالدي Vivaldi، شيء من النشوة والفرح على الطريقة الإيطالية؛ أي الكاثوليكية، وتذكر كذلك شوتز Schutz. توحي هذه الموسيقى بميل نحو توحيد الكنائس، وهي تخلد جسد المسيح الملتئم الذي سرعان ما سينقسم بفعل انقساماتنا الثقافية والدينية واللغوية والسياسية، تلك الانقسامات التي أدت إليها حماقاتنا القاسية المتعالة. يبلور بوكستهود هنا، موسيقياً، ما قام به القس أرنولف دو لوفان Arno phe de Louvan في اللاتينية، ولوثر في الألمانية. إنها موسيقى تجسّر الدين.

عندما أكتب، فإنني أشبه مؤلفاً موسيقياً فاشلاً فأنا بلرمي مترحمون، أما أنت، أيها العارف على آلة البيانو أو الصل الصعير، فيمكنك أن تتقدم بكل عرابتك حيث تعزف للجميع.

معزوفة رأس السنة.  
ولهيلم باش، 1927  
Concert du nouvel an,  
Wilhelm Busch, 1927

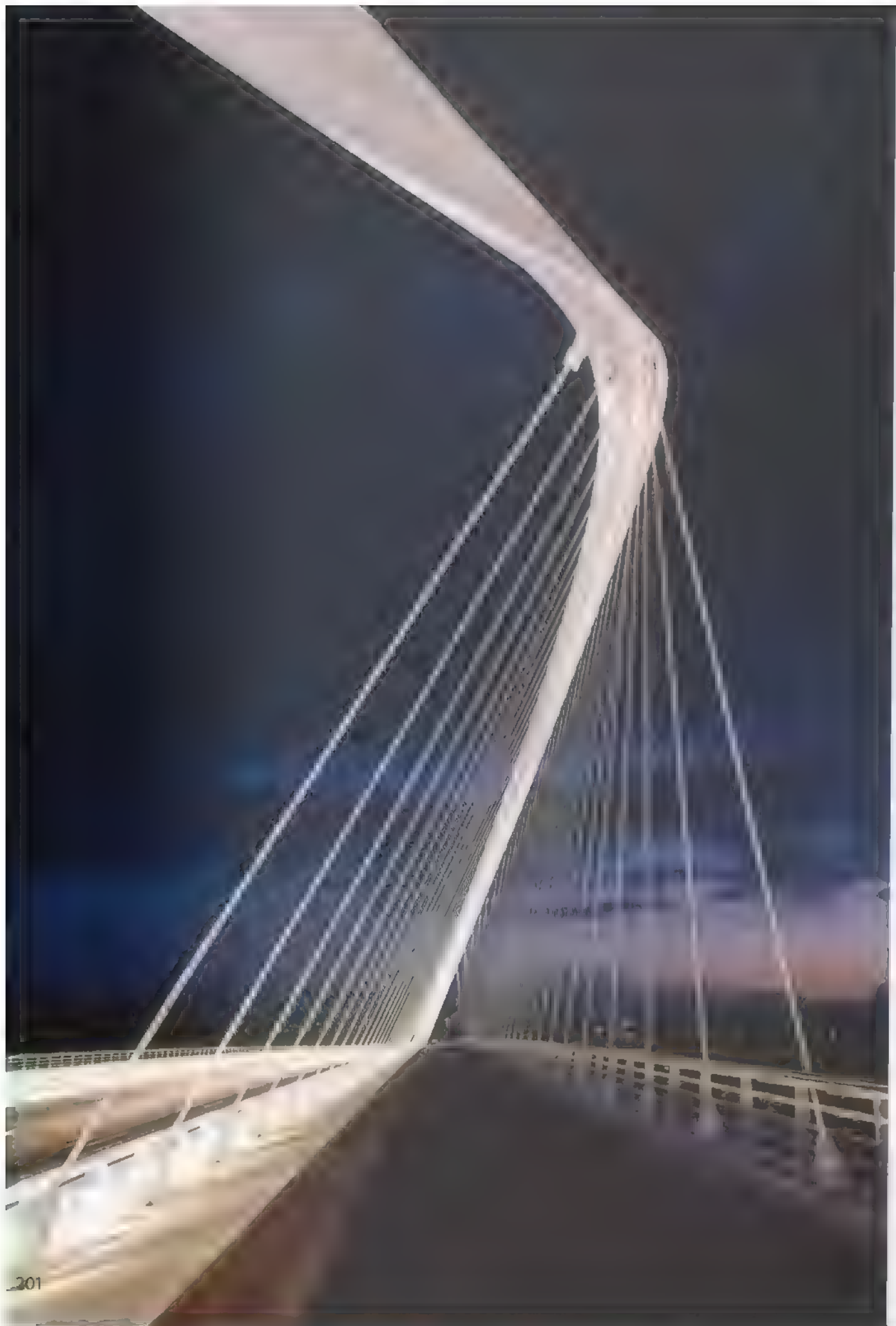
يمكن أن يقال الشيء نفسه عن الفلسفة، لأن الفلسفة تسعى نحو بناء جسرٍ أوسع عالمياً من الموسيقى والمال. إن الأفكار المتناسقة للاينتز Leibniz، المكتوبة بالفرنسية والألمانية واللاتينية، حول تجاوز الجوهر، يمكنها أن تؤسس في اللاهوت، مساعيها السياسية من أجل إقامة أوروبا يعثها السلم. على غرار بوكستهود Buxtehude يضمّ الفضاء المهادن إلى جسد المسيح. ينتهي الأمر بأن يصدق هذا على السياسة: عند نهاية الحرب الأخيرة، كان الرابط بين آباء أوروبا، من الجانب الألماني والفرنسي والإيطالي...، وكذا نشطاء مختلف الأحزاب السياسية، هو المسيحية. كان البروتستانت والكاثوليك يمارسون العمل التوحيدي الذي غدا سيانه اليوم، مصدر تفرقة ونشتت جديدين، فكانت الشعوب التي أرقها الاقتتال، ترغب في أن تلتئم من جديد.



لم نعد نؤلف حول أعضاء المسيح، ولم نعد نتأملها. لذا أصبحنا لا نعرف بالكيفية نفسها، بناء وحدة، أوروبية أو غيرها، مثلما كان عليه المؤلف، والفيلسوف واناؤنا المؤسسون إنا نقول بالطبيعة الواحدة، ونقتصر على الرؤية الضيقة للسياسة والاقتصاد. لقد نسينا أننا، إذ نفصل، ونحارب، وننافس، ونساجر، وإنا ننسى، بدون انقطاع، تمزق جسد يسوع الذي تغى به بوكستهود Buxtehude في رائعته، وجنر لايبنتز حوله سياسته الأوروبية، حيث تلاه فيما بعد روبر شومان Schuman وكونراد أديناور Konrad Adenauer ودي غاسبري De Gasperi.

لقد أضعنا جسر المسيح في أوروبا. نسينا الروحانيات. أعيش نصف حياة، مبتذلاً، متخففاً، فاقداً كل جمال. الإله الضائع في الضفة المواجهة، يدل على عوزي. أنا في حاجة إلى جسر. بالنسبة إلي بوصفي مسيحياً، فوحده إنسان-إله ذو طبيعة مزدوجة يمكنه أن يعيد بناءه. فهل سيستعيد جسد المسيح؟ وهل سنعيد بذلك إبداع جسدنا نحن؟

أحب أن يكون مقاطعه  
أوربيون، Orléans، حيث  
نحفل بحار دارك لا بوسيل دا  
Puce le، قد سمت هذه التحفة  
الجميلة جسر أوروبا (2000). ذلك لأن  
جميع أبطالنا، ومن بينهم جان دارك،  
ناضلوا من أجل فك أوصالها منذ كلوفيس  
Clovis وشارلوماني Charlemagne حتى  
فوش Foch وكليمانسو Clemenceau. من  
دون بطلنا، ما كان لفرنسا وإنجلترا أن يعرفا من  
مسافة إلى بحر المانش. ومن غير أن نتكلم عن بقية  
أشبه لناس العظام الذين جلدتهم أصدافاً في بلدتهم  
كبسمارك Bismarck أو ويلينغتون Wellington. لتتخل  
عن عديد من أمجادنا الذين رفعناهم إلى درجات عليا بقدر ما قتلوا  
من أبناء واماأنا، لنقلب الحوليات، ولننعم فقط بالسافرين،  
الذين يتكلمون أربع لغات، المسايين، واحتصر سنعم سناتي الجسور



## أعمال الكاملة



الكل يعرف المونت سان ميشيل Le mont Saint-Michel. أقل من المعروف أنه في ثلاثة ملادات للملائكة، هناك حط مستقيم بجسر أوروبا، من كورنوال Cornouailles وجبل باي في جنوب إيطاليا.  
لوحة حائطية للوريتو أبروتينو أبروتيس Loreto Aprutino, Abruzzes، القرن الرابع والخامس عشر، نبيس ميخائيل وهو يساعد الأرواح على عبور الجسر الأخير.

ها قد وصلت إلى الفصل الأخير، وعلي أن أفصح عن كل جسوري. لايبنتز Le bniz، كونت Conte،  
لوكريس Lucrece، جول فيرن Jules Verne، وزولا Zola، كل هذه الأسماء تقيم  
الأعمدة وتطلق السفن، وتجرح حبال شاطئ العلوم الصلبة نحو العلوم الأكثر  
نعومة، علوم المنظومات والحكايات والديانات والإنسانيات. يعبر هيرميس  
Hermès والملائكة، في صمت، جسورًا لا تُعد ولا تحصى؛ عن  
طريق التواصل والتداخل، وألف ألف ترجمة، وشبكات  
التوزيع... وكذا، وينفس القدر، عبر ممر الشمال  
العربي. بعد سفينة الرمح ومخالب التنين،  
رسم كارباسيو Carpaccio لوحة الحوار  
المقدس La Sainte Conversation  
التي أتلفتها الطفيليات، وأعاد  
ترميمها التكافل. تجسر الخنثى  
الجنسين، كما يجسر الحد  
الثالث الثقافتين، وكما تجسر  
الحكاية الكبرى جميع الأزمنة.  
لم أحلم قط إلا بالجسور،  
ولم أكتب إلا حولها، ولم  
أفكر إلا فوقها وتحتها، ولم  
أحب إلا هي. هذا الكتاب  
حول الجسور ينتهي  
بوصفه كتاب جميع كتي.

أعجب لأولئك المهندسين، الذين يسون أو يكتبون مثبعين حطة يقولون إنها تحول في خلداهم. أما أنا، فليس لي إلا حمار عنيد يخطط خبط عشواء، لكنه قد يحز نحو الأمام في بعض الأحيان. بما أنه كسول، فأنا آحده من الدبب، فيجرني معه. لا أعلم أين يتجه مهرولاً. وهل يعلم هو؟ هل له معرفة لا علم لي بها؟ عندما يصل مغا هنا أو هناك، يتكون لدي انطباع بأنه اختبرني بطرح سؤال صعب للتمكن من عبور حسر. بهذا التجهيز المتواضع، سلخ مغا الشاطئ الآخر، عند نهاية كتاب. فهل أتقنا العبور؟

الحكاية التي تنتهي بشكل سيئ لم تكن. النهاية الجيدة والاكتمال يدلان على حب فتننا، وسعادة عمرت زماننا، وحياة أشبعت صاحبها. النهاية تكشف الحقيقة. والانتصار لا يرن إلا عند اللحظة الحاسمة. الهزيمة تنكشف هنا. لا نعرف النجاح إلا عند لحظة الانتهاء. لا يصبح المنزل جميلاً إلا عند اكتماله، عند باقة القرنفل على سطحه. لا يفصح الكتاب عن ميزته إلا في كلماته الأخيرة. ينبغي للشبيخوخة أن ترى جانب الصواب في حياتها.

لقد حلت اللحظة. بلعت صفحتك الأخيرة، اقرأ أو اكتب آخر جملك. ها أنت قد وصلت إلى الجانب الآخر من الجسر. ماذا فعلت؟ كيف عشت؟ ما الذي ينبغي استخلاصه من الظروف، والفصول، والمحن، ومن أسلوب عيشك؟ كيف عبرت مسار الزمن؟ وأخيراً، كيف الحصول على كنز محتمل بعيداً عن التفاهات السطحية؟ ليس عليك، بدءاً من الآن، أن تنتج، وإنما عليك أن تكتشف الحصيلة الحق لحياتك. كيف تنتهي نهايةً حسنة.

سواء أتعلق الأمر بسد أم سقطة أم انبعث جديد، ساعدوني على اكتشاف شكل النهاية المحسومة.

## على الجانب الآخر من الجسر



هذا اسطر الطبيعي الذي رسمه الدواني روسو J. Douanier Rousseau، هل تحده عريننا كم بقول هو؟ فردة وبيدوات، بين أوراق كثيفة، هذه بكل ساطعة، وعن طريق الحركات واللغات، هي المحاكاة، لحسن العاني بين البشر. في البلد الذي يفلد فيه الجميع نفسه، أين عساك تجد الأصل، إنه غائب؟

منظر غريب، مع فرد وبيدعاء. دوواني روسو، 1908

Paysage exotique avec singe et perroquet, Douanier Rousseau, 1908.

كانت لديّ هوايات ثلاث:

الحب، والمعرفة، والأسفار. أحب الغريب،

أحب أن أطلع على الخارج. بامبارا، زولو، أمرينديان،

أبوريجان، شيريا. لقد أحببتكم ألى أنتم. اختلافاتنا تنعشي.

نحلّ بشجاعة بناء الجسور عبر أشد الصدامات الحضارية. لا كلمة، في

أي قاموس، تترجم بالضبط أي كلمة في لغتك، فمساحاتها الدلالية لا تتوافق.

عليك إذن أن تتلعثم في لغة أخرى، عليك أن تغتبر من جسمك كلما ارتقيت درجة

نحو القطبين، وكلما تنقلت بين أطوال الارتفاع. تناول الطعام، والنوم، والكلام، والمشى،

والتأشير، كل هذه الفعاليات البسيطة تتطلب مجهود الانطلاق نحو الجانب الآخر من الصفة.

احتفظ بضعفك على ظهرك، ستستبد عليها، وستستريح على صخرها، وقد تحد فيها راحتك.

لكن أدر بطنك ووجهك نحو الصفة الأخرى، وألق بسفينتك في الماء، وإلا فلى تتعلم شيئا. كن أسود

مع السود، وأصفر مع الأصفر، وأحمر مع الأحمر، وإذا كان هناك زرق، فقد تعثر على وسيلة كي نرزق.

استغرت، ليس من الاختلاف، كما كان يتم من قبل، وإنما من انتمائك أنت: كيف يمكن أن يولد المرء جاسكونيا

Gascon، كيف يمكن أن يكون قد أبحر في الجارون Garonne؟ بدل الأرض والماء واللغة والفكرة والجسد...

## جسر الثقافات والديانات

تذكّر، كان أجدادك يؤمنون  
بتوتاتيس، ويقطفون الهدال، ويعبدون الكهنة.  
وفجأة، ونتيجة قرارٍ قَلَمًا يحدث في التاريخ، تخلّوا، هم  
ومئات الشعوب المجاورة في أوروبا وإفريقيا وآسيا، عن الاعتقاد  
بأن أرضهم المقدسة توجد تحت أقدامهم، وإنما في فلسطين، وأن أب  
آبائهم لا يقطن في مكان الدفن العائلي، وإنما يسمى إبراهيم، وأنهم، بوصفهم  
مسيحيين، يركعون ليسوع. هل سبق أن رأينا قبيلة تنسى آلهتها، وتحتقر أرضها،  
وتعبد إلها بشر به آخرون؟ غرب معين، أكبر اتساعاً من هذا الذي أثبت على ذكره للتوّ،  
تولّد عن هذا الهجران، هذا الانفصال، هذا الانتزاع عن الأرض. وهو يدين بنبوغه العلمي إلى  
هذه المسافة والابتعاد. عندما فقدت الأرض والنبات والأشجار واللغة أصلتها القدسية، تمكّنت  
من أن تغدو موضوعية. لقد حصل هذا لكونهم قد قطعوا الحسور مع جماعتهم، ومع ذواتهم.  
التطابق يغرقنا في الظلمة، والآخر يضيء لنا الطريق. التطابق يدفننا، والآخر ينقذنا.

كيف نسمي آخر كل المعتقدات، اللهم إلا اعتقاد الآخر؟

ليس للإنسان، وليد الجسور والديانات، ولا لأيّ قس، أن يسعى إلى مواقع السلطة، أو أن يرعب فيها أو أن يحتلها. إنهم جميعاً يرفضونها بالأحرى، باعتبارهم منشغلين سناء جسور نحو الآخرين، أو بالترحيب بهم في شاطئهم. الآخرون ينقدوننا وفقاً للحب الذي نكنّه لهم. لو لم تكن المحبة، لأمكنني التكلم بمئة لغة، إلا أنني لن أقول أكثر مما تقوله الآلة الموسيقية النحاسية التي تُسمع ضربتها. المحبة تسمح بكل شيء، وتعنفد كل شيء، تأمل في كل شيء، وتتألم لكل شيء.

إنها تفتح الجسر العالمي.



عادت الفيضانات إلى المياه المنخفضة. وأخيرًا وضعت السفينة، الموسوعة أو العمل، في ميناء يطفو بشكل متناقض. هناك دخان يتصاعد مترجياً في اتجاه قوس قزح، جسر السلام.. الآن سينتشي نوح من جديد.

L'Arche de Noé, M.-K. Ciurlonis سفينة نوح



MANA.NET





هذا الكتاب احتفاء بالجسور التي تربط  
البشر ببعضهم بعض، مهما كانت  
طبيعتها، مادية، أو لامادية. يبوح ميشيل  
سير للجسور بولعه، فيجزنا إلى سطوحها،  
سواء أكانت من لحم أو من معدن، من  
حجر أو من كلمات. إنها قصيدة - دوامة،  
عميقة ورشيقة، تُدهشنا بقدر ما تُثرينا.



ISBN 978-603-91589-9-8



9 786039 158998

الطبعة الأولى: 2021